الفتور في العبادة

أسبابه ومظاهره وسبل علاجه

مشعل بن محمد العنزي



دار القاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

ح دار القاسم للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العنزي، مشعل محمد نزال
الفتور في العبادة ومظاهره وسبل علاجه./ مشعل محمد نزال
- الرياض، ١٤٣٦هـ
... ص ؛ ... سم
ردمك: ٤ - ٧٢٣ - ٥٣ - ٩٩٦٠
١ - الوعظ والارشاد أ - العنوان
ديوي ٢١٣ ١٤٣٦/٣٨٦٣

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٣٨٦٣
ردمك: ٣ - ٢٩١ - ٥٣ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

دار القاسم للنشر والتوزيع
المكتب الرئيس: هاتف: ٤٠٩٢٠٠٠ - فاكس: ٤٠٣٣١٥٠
فروع دار القاسم للنشر
الربوة هاتف: ٤٤٥٢٠٤٥ - فاكس: ٤٤٥٢٠٤٥
جدة: هاتف: ٦٠٢٠٠٠٠ - فاكس: ٦٣٣٣١٩١
الدمام: هاتف: ٨٤٣١٠٠٠ - فاكس: ٨٤١٣٠١١
www.dar-alqassem.com
sales@dar-alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، والشكر له على ما أولى من نِعَم سابغةٍ وأسدى، أحمده ـ سبحانه ـ، وهو الولي الحميد، وأتوب إليه جل شأنه، وهو التواب الرشيد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نستجلب بها نِعَمه، ونستدفع بها نقمه، وندخرها عُدةً لنا ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٨].

وأشهد أن محمدًا عبدالله ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، صلى الله عليه وعلى آله نجوم المهتدين، ورجوم المعتدين، ورضي الله عن صحابته الأبرار الذين قاموا بحق صحبته، وحفظ شريعته، وتبليغ دينه إلى سائر أمته، فكانوا خير أمة أخرجت للناس. . .

أما بعد:

فإن العبد المؤمن المتمسك بشرع الله معرض لمكائد الشيطان المغرضة، وشباكه المعقدة، وأنيابه المفترسة، ولكن ما أهون هذا الشيطان، وما أقل حيلته، وما أضعف كيده، إذا واجهه المؤمن الصادق؛ فراجع أسباب ضعف إيمانه، ونظر في علل فتوره وتقصيره، واتخذ من أسباب الثبات على دينه ما ينصره على الشيطان في هذا الصراع العنيف، فمن نظر إلى ذلك بعين المحاسبة والمراجعة سلم دينه.

ســائلاً المولى ـ جل في علاه ـ، أن يوفقنا للعلم النافع والعمل الصالــح، وأن يكتب لهذا الكتاب القبــول، ويجعله خالصاً لوجه الكريم.

مشعل بن محمد العنزي

التمهيد

يجمل بالكاتب قبل أن يبدأ في كتابه أن يبدأ بتعريف لأهم المصطلحات التي يشتمل عليها الكتاب، ومن هذا المنطلق فإني أعرف بمصطلح الفتور على النحو التالي:

١ـ الفتور:

لغة: قال العلامة ابن فارس: «الْفَاءُ وَالتَّاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ فِي الشَّيْءِ. مِنْ ذَلِكَ: فَتَرَ الشَّيْءُ يَفْتُرُ فُتُورًا. وَالطَّرْفُ الْفَاتِرُ: الَّذِي لَيْسَ بِحَدِيدٍ شَزْرٍ. وَفَتَّرْتُ الشَّيْءَ وَأَفْتَرْتُهُ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٧٥] أَيْ لَا يُضْعَفُ»[١].

وجاء في مختار الصحاح: الفترة: الانْكِسَارُ وَالضَّعْفُ[٢].

«وفَتَرَ الشيءُ وَالْحَرُّ وَفُلَانٌ يَفْتُر ويَفْتِر فُتُوراً وفُتاراً: سَكَنَ بَعْدَ حِدَّةٍ ولانَ بَعْدَ شِدَّةٍ»[٣].

وفي المعجم الوسيط: «يُقَال فترت المفاصل وفتر الْمَاء الساخن وفتر الْبرد وفتر الطّرف انْكَسَرَ نظره وفتر عَن عمله قصر فِيهِ وَإِلَى الشَّيْء اطْمَأَن. وَالشَّيْء فترا قدره بفتره. (أفتر) ضعفت جفونه فانكسر

(١) مقاييس اللغة مادة «فتر»، ٤/ ٤٧٠.

(٢) لأبي عبد الله الرازي، مادة «فتر»، ١/ ٢٣٣.

(٣) لسان العرب، لابن منظور، مادة «فتر» / ٥/ ٤٣، وينظر: القاموس المحيط، للفيروز آبادي ١/ ٤٥٤.

طرفه والداء وَنَحْوه فلَانا أضعفه»[١].

وعليه فإن الفتور في اللغة يدور حول معان عدة منها: الكسل والتراخي والضعف والسكون والانكسار والانقطاع بعد الجد والنشاط والحيوية والاستمرار.

أما تعريف الفتور اصطلاحاً فلا يخرج في مجمله عن التعريف اللغوي، وقد عرف بعدة تعريفات، منها ما يلي:

التعريف الأول: «الفُتُورُ: سكون بعد حدّة، ولين بعد شدّة، وضعف بعد قوّة»[٢].

التعريف الثاني: «استثقال الشيء ونفور النفس عنه بعد محبته»[٣].

التعريف الثالث: «خلاف القوة، وتكون في النفس وفي البدن وفي الحال»[٤].

التعريف الرابع: «التثاقل عما لا ينبغي التثاقل عنه»[٥].

وعليه فإنه يمكن تعريف الفتور اصطلاحاً: بأنه حالة ضعف وملل بعد قوة ونشاط.

---

(١) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مادة «فتر» ، ٢/ ٦٧٢.

(٢) المفردات في غريب القرآن ،للراغب الأصفهاني ١/ ٦٢٢.

(٣) فتح الباري، لابن حجر، ١/ ١٠٢.

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، لزين الدين المناوي، ١/ ٢٢٣.

(٥) المرجع السابق، ١/ ٢٨١.

٢ ـ تعريف العبادة لغة:

العبادة قال ابن فارس «(عبد) العين والباء والدال أصلان صحيحان، كأنهما متضادان، والأول يدل على لين وذل، والآخر على شدة وغلظ»[١] وأصل العبودية الخضوع والتذلل»[٢].

العبادة اصطلاحاً:

لقد اختلفت عبارات السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ في تعريف العبادة اصطلاحاً إلا أن المعنى متحد تقريباً، وإنما الفرق بينها في الشمول. وسأعرض بعضًا منها:

١ ـ وعرفها الإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ بقوله: «العبادة هنا عبارة عن توحيده والتزام شرائع دينه. وأصل العبادة الخضوع والتذلل»[٣].

٢ ـ العبادة «عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف»[٤].

٣ ـ قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمة الله ـ: «العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[٥].

---

(١) مقاييس اللغة، مادة «عبد»، ٤ / ٢٠٥.

(٢) لسان العرب، مادة «عبد» ٣/ ٢٧١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٢٢٥.

(٤) تفسير ابن كثير ١/ ٤٨.

(٥) العبودية، ٤٤.

وهـو التعريف المختار، لما يمتاز به من دقة ووضوح لمعنى العبادة المراد هنا، بخلاف التعاريف السابقة، فإنها تدل على المفهوم العام والشامل للعبادة.

وبناء على ما سبق يكون تعريف الفتور في العبادة تعريفاً مركباً بأنه: حالة كسل وضعف في العبادة تُصيب المؤمن بعد همته ونشاطه.

ـ أنواع الفتور في العبادة:

للفتور في العبادة أنواع تتفاوت من حيث قوتها وخطورتها على دين العبد واستقامته وتؤثر على صلاح القلب وجوارحه.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فتخلل الفترات للسالكين: أمر لازم لا بد منه. فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد، ولم تخرجه من فرض، ولم تدخله في محرم: رجا له أن يعود خيرا مما كان»[1].

وقال في نونيته:

وتخلل الفترات للعزمات أمـ ـر لازم لطبيعة الإنسان

وتولد النقصان من فتراته أو ليس سائرنا بني النقصان[2]

(١) تهذيب مدارج السالكين، ٤٩٤.

(٢) نونية ابن القيم، لابن قيم الجوزية، ٢٦٤.

وقال آخر:

لـكـل إلـى شـأو الـعـلا حـركـات
ولـكـن عـزيـز فـي الـرجـال ثـبـات[١]

ولقد أشارت النصوص الشرعية إلى أن المؤمن معرض للإصابة بهذا الداء، والإصابة به على نوعين هما:

النوع الأول: فتور عام: وهو ما يصيب العبد فيضعف في عبادته عموماً ويتكاسل عن أدائها، وقد ينقطع عنها بالكلية، ويعد هذا النوع أخطرها على دين العبد واستقامته، ولهذا كان النبي الملهم والقائد المسدد والمعصوم ﷺ أشد الناس خوفاً من ربه وأقربهم إليه، ومع ذلك كان يقول «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[٢] فمن أداه فتوره إلى ترك الفرائض والوقوع في المحرمات، فهو على خطر عظيم، فقد ثبت في الحديث «**ومن كانت فترته إلى المعاصي، فذلك الهالك**»[٣] وعلامة هذا الفتور «أن يصل صاحبه إلى ترك واجب أو فعل محرم ويصرّ على ذلك»[٤].

(١) القائل: عبد الواحد الأصفهاني، نقلاً عن قرى الضيف، لعبد الله بن محمد ٥/ ١٣٦.

(٢) ونصه عن أنس قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك». قال: فقلنا يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: فقال: «نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله - عز وجل - يقلبها» رواه الإمام أحمد في مسنده، ١٩/ ١٦٠ رقم الحديث (١٢١٠٧).

(٣) مسند الإمام أحمد، مسند عبد الله بن عمرو، ١١/ ٩٨.

(٤) مقال شباب الصحوة بين العطاء والفتور، لخباب مروان الحمد ٩/٢٢٦.

ومما يدل على خطورة هذا النوع عدة أمور:

١ ـ إن الله ذم المنافقين بما أتصفوا به من تكاسل وتباطؤ عن إقامة الصلاة فقال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

أي: قاموا إليها في فتور وتكاسل وتبأطؤ في أدائها، لا يريدون بها وجه الله، ولا يذكرون الله إلا قليلا.

٢ ـ إن الفتور سبب للخذلان، ونسيان الله للعبد، قال تعالى ﴿ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [التوبة: ٦٧].

أي: «تركوا أمر الله فتركهم الله»(١).

قال العلامة الشعراوي «المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليفه فنساهم الله أي أهملهم، فمن يبعد عن الله يزده الله بُعْداً، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠] فإن كنت مسروراً من أنك نسيت الله فسيزيدك نسياناً، ويختم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبداً»(٢).

٣ ـ إن هذا النوع من الفتور لا يدركه من أصيب به إلا بعد فوات الأوان، و قد يؤدي هذا إلى انتكاسة وانحرافه عن طريق الجادة إذا

(١) جامع البيان، لمحمد بن جرير الطبري، ١٠/١٢٩.
(٢) الخواطر، ٩/٥٢٦٧.

لـــم تتم معالجته معالجةً جادة، وذلك مصداقاً لقوله ﷺ من حديث أبي ســعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخراً فقال لهم «تقدموا فأتموا بي، وليأتم بكم من بعدكم، لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله»(١) فعدم محاسبة النفس وتأخيرها يؤدي إلى الانحراف مع مرور الوقت.

٤ ـ اعتقاد من أصيب بهذا الداء من أهل الصلاح بأنهم بمنأى من السقوط، ومن الضعف بعد النشاط ومن لين القلب إلى قسوته، قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ «أعظم المعاقبة أن لا يحس المعاقب بالعقوبة. وأشد من ذلك أن يقع السرور بما هو العقوبة... وإني تدبرت أحوال أكثر العلماء والمتزهدين فرأيتهم في عقوبات لا يحسون بها»(٢).

٥ ـ اعتقـــاد من اصيب بهذا الداء بـــأن المخاطب بهذه الكلمات والتوجهات هم العوام والبســطاء ومن أعتقـــد هذا فهو على خطر عظيم، لأن الشيطان قد استحوذ عليه، وزين له سوء عمله، «ومن ادعى العصمة ـ مهما بلغ علمه ووسع فهمه فقد ادعى شيئاً لم يدعه المعصوم ﷺ»(٣).

ـ النـــوع الثانـــي: فتور خاص: وهو ما يصيب العبد من كســـل وتباطؤ في عبادة معينه وهذا الفتور ينقسم إلى قسمين:

---

(١) صحيح مسلم، باب تسوية الصفوف، ١/ ٣٢٥، رقم الحديث (٤٣٨).

(٢) انظر: صيد الخاطر ص ٩.

(٣) من أخبار المتنكسين، لصالح العصيمي، ١٣.

ـ فتـور دائم: وهو ما يصيب العبد من كسـل دائم في عبادة معينه مثل الذكر أو الصلاة أو الصيام وقد ينشأ عن هذا هذا فتورا عام إذا لم يتدراك العبدُ نفسه ويحقق التوازن المطلوب في عبادته.

ـ فتـور عـارض: وهذا النوع لابد منه، ولا يسـلم منه أحد إذ أن هذه سـنة الحياة، فقد يفتر الإنسـان في عبادة ما؛ لكن سرعان ما يعود إلى رشـده وصوابه إذا ذكره مذكـر ووعظه واعظ، ومما يدل على هذا ما رواه الإمام مسلم عن حنظلة ـ رضي الله عنه ـ، قال: كنا عند رسـول الله ﷺ، فوعظنا، فذكر النار، قال: ثم جئت إلى البيـت فضاحكت الصبيان ولاعبت المـرأة، قال: فخرجت فلقيت أبـا بكر فذكرت ذلك لـه، فقال: وأنا قد فعلـت مثل ما تذكر، فلقينا رسـول الله ﷺ، فقلت: يا رسـول الله نافق حنظلة فقال: «مه» فحدثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل، فقال: **«يا حنظلة سـاعة وسـاعة، ولـو كانت تكون قلوبكم كمـا تكون عند الذكر، لصافحتكم الملائكة، حتى تسلم عليكم في الطرق»**(١).

فغفلة الإنسـان أمر لازم لابد منه، لكن على المؤمن تدارك نفسه ومعرفة أسباب ذلك والسعي في علاجها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/٢١٠٧ رقم الحديث (٢٧٥٠).

المبحث الأول:
أسباب الفتور في العبادة

إن لكل مظهر أسباب أدت إليه، حتى أصبح ذلك سمة للأنسان، ومن تلك المظاهر، الفتور في العبادة.

المقصود بالأسباب هنا كل طريق يؤدي إلى الضعف والتكاسل والتباطؤ في العبادة بعد القوة والنشاط والبذل والاجتهاد.

ومعرفة أسباب الفتور في العبادة أمرا لابد منه وذلك للانتباه له والحذر من الوقوع فيه من حيث لا يشعر.

ولهذا قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشـ
ـر (للشر) لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشر
من الناس يقع فيه[1]

فمعرفة أسباب الضعف والسكون تدفع العبد للأبتعاد عنها، وسرعة علاجها، والحذر من مقارافتها مرة آخرى.

---

(١) القائل: أبو فراس الحمداني، نقلا عن: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، لأحمد بن قبش نجيب، ٥/ ١٧٠.

المطلب الأول:
الأسباب القلبية للفتور في العبادة

إن اختلال العبادات القلبية هدم لعبادات الجوارح، وهذا أمر مهم خطير، وقد دل على هذا ما أخرجه البخاري من حديث النعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ «ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

ففساد القلب طريق لفساد أعمال الجوارح من عبادات قوليه أو فعليه؛ لانه مناط الأعمال كلها فإن كان صالحاً صلحت الأعمال تبعاً له وإن فسد فسدت جوارجه وأركانه تبعاً له.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب وأنها لا تنفع بدونها وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح

(١) صحيح البخاري، ١/ ٢٠، رقم الحديث (٥٢).

وأكثر وأدوم فهي واجبة في كل وقت»[١].

«فاختـــلال الإخلاص ـ مثلا ـ قد يؤدي إلى الشـــرك أو النفاق، وهو هادم لعبادات الجوارح كلها»[٢].

واختـــلال العبادات القلبية اختلال لأعظم مراتب الإســـلام وهو الإحسان؛ لأنه مبني على المراقبة وهي عبادة قلبية، وقد عرفه النبي ﷺ بقوله «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٣].

قـــال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: «هذا من جوامع الكلم التي أوتيهـــا ﷺ لأنا لو قدرنـــا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه ـ سبحانه وتعالى ـ لم يترك شيئا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره»[٤].

فإذا اختلت هذه المرتبة فتر العبد وفرط في عبادته واستسلم لهواه. فإذا عُرف أثر الأسباب القلبية على عبادة العبد واستقامته يحسن ذكر هذه الأسباب مفصلة ليحذر العبد من الوقوع فيها فيهلك.

---

(١) بدائع الفوائد، ٣/ ١٩٣.

(٢) العبادات القلبية وأثرها في حياة المؤمن، لمحمد حسن موسى، ٣٢.

(٣) أخرجـــه البخاري ومســـلم، واللفظ للبخاري، باب «ســـؤال جبريل النبـــي ﷺ، ١/ ١٩، رقم الحديث(٥٠).

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج، ١/ ١٥٧.

السبب الأول:
الرياء والسمعة

الرياء والسمعة في اللغة: «الرياء في اللغة مشتق من الرؤية تقول: رأى الرجل: إذا أظهر عملا صالحاً ليراه الناس ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝﴾ [الماعون: ٦ ـ ٧] ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال: ٤٧] «والسمعة مشتقة من سمّع يقول: سمّع الناس بعمله أي أظهره لهم بعد أن كان سرا»(١).

أما مفهوم الرياء أو السمعة في الاصطلاح: فهو «ملاحظة الخلق والجهد في إستمالة قلوبهم وصرف وجوههم»(٢).

إذا الرياء هو إطلاع المسلم الناس على ما يصدر منه من الصالحات طلباً للمنزلة والمكانة عندهم أو صرف وجوههم إليه طمعاً في دنياهم.

إن مما لا شك فيه أن الرياء وحب الظهور وطلب السمعة من أبرز سمات الفاترين، وهو أشد الأسباب خطراً على دين المرء لأنه يفضي إلى الفتور العام المؤدي إلى النفاق، وقد أشار الله ـ تعالى ـ لهذا بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝﴾ [النساء: ١٤٢].

---

(١) مختار الصحاح، ١/ ١١٥.

(٢) إحياء علوم الدين، ١/ ٤٧.

قال الزمخشري - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «وهكذا ترى كثيراً من المتظاهرين بالإسلام لو صحبته الأيام والليالى لم تسمع منه تهليلة ولا تحميدة ولكن حديث الدنيا يستغرق أوقاته لا يفتر عنه»(١).

فمن اتصف بهذه الصفة فقد حُرم من توفيق الله وهدايته، وذلك أن الهداية من الله وحده، وقد مضت سنة الله في خلقه أن لا يهبها إلا لمن أخلص إليه، وصدق الله إذ قال ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: ٥].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال - تعالى -: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معيَ فيه غيري تركته وشركه»**(٢).

وجاء عن محمود بن لبيد - رضي الله عنه - قال: خرج النبي ﷺ فقال: **«أيها الناس إياكم وشرك السرائر»** قالوا: يا رسول الله، وما شرك السرائر؟ قال: **«يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته جاهداً لما يرى من نظرِ الناس إليه، فذلك شرك السرائر»**(٣).

«فإذا ضعف الإخلاص أو دب الرياء فسرعان ما يخبو الحماس وتضعف العزيمة، وأنبه هنا إلى حالتين مهتمين في عدم الإخلاص وهو:

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ١/ ٥٧٩.

(٢) صحيح مسلم، ٤/ ٢٢٨٩، رقم الحديث (٢٩٨٥).

(٣) صحيح ابن خزيمة، ٢/ ٦٧، رقم الحديث (٩٣٧).

أ ـ إما أن يكون أساس العمل غير مقرون بالإخلاص كما قيل:

صلى المصلي لأمر كان يطلبه
فلما انقضى لا صلى ولا صاما[١]

ب ـ أن يكون أساس العمل خالصًا ثم طرأت عليه صوارف أضعفت الإخلاص: رياء وسمعة و حب جاه و طلب دنيا، لذلك وجب على المسلم تعاهد إخلاصه وتجديده، عند كل عمل يرجو به وجه الله فهذا أبقى وأنقى»[٢].

وقد قيل أخلص تثبت فإنما يتعثر المرائون والذين لا يخلصون، وما أسرع سقوط من تتبع رضا الناس ومدحهم وثناءهم عليه.

---

(١) نقلا عن: الفتور.. الإيمان بين الزيادة والنقصان، لميادة بنت كامل آل ماضي ، ١٣.

(٢) المرجع السابق ١٣.

السبب الثاني:
الإعجاب بالنفس

والعجب والغرور في اللغة: «الزهو. ورجل معجب: مزهو بما يكون منه حسناً أو قبيحاً»[١].

وفي الاصطلاح: «استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها للمنعم»[٢].

وقال بشر بن الحارث ـ رحمه الله ـ: «العجب أن تستكثر، عملك وتستقل عمل الناس أو عمل غيرك»[٣].

فالعجب له أثر خطير على العبادة، ولقد ذمه الله ـ تعالى ـ في كتابه الكريم فقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

وهذه الآية فيها عتاب للمؤمنين لإعجابهم بأنفسهم وكثرتهم وما هم عليه من دون إتكال على الله، فكان هذا العجب هو سبب للخذلان في تلك المعركة.

---

(١) لسان العرب، ١/ ٥٨٢، مادة «عجب».

(٢) إحياء علوم الدين، ٣/ ٣٧١.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبو نعيم أحمد بن عبدالله الاصبهاني، ٨/ ٣٤٨.

ومما يدل على خطورة العجب على دين العبد وثباته، ما جاء عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه»(١).

فإعجاب المرء بنفسه سبب للخذلان والحرمان من التوفيق، ولا عجبَ في ذلك فإن سيد الهالكين أبليس الرجيم كان سيد المعجبين بأنفسهم، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى ذلك بقوله ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

فكان هلاك إبليس بسبب إعجابه بنفسه حتى وصل به ذلك للاعلاض عن أمر الله وهو السجود.

ومن تأمل كلام السلف في ذم العجب بالنفس ليعلم علم اليقين أنه لا يأتي بخير، وإنما هو طريق للهلاك في الدنيا والآخرة، قال سعيد ابن إسماعيل ـ رحمه الله ـ: «الخوف من الله يوصلك إلى الله والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله، واحتقار الناس في نفسك مرض لا يداوى»(٢).

وقيل لداود الطائي ـ رحمه الله ـ: أرأيت رجلا دخل على هؤلاء الأمراء فأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر؟ قال: أخاف عليه السوط، قال: إنه يقوى، قال: أخاف عليه السيف، قال: إنه يقوى قال: أخاف عليه الداء الدفين من العجب»(٣).

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط باب «الألف»، ٥/٣٢٨، رقم الحديث (٥٤٥٢).

(٢) حلية الأولياء، ١٠/٢٤٥.

(٣) حلية الأولياء، ٧/٣٥٨.

ومن نتائج الغرور وأثره على عبادة صاحبه:

١ ـ الشعور بالكمال فالمرء حينما يُعجب بنفسه يشعر بالكمال فلا يرى أن له حاجة في الازدياد من طرق الخير والعمل الصالح، والإيمان يزيد وينقص فإن لم يزد فهو في نقص، وإذا نقص إيمان المرء بقلة الأعمال الصالحة والوقوع في المحرمات أوشك على الضعف والهلاك.

٢ ـ إن العجب سبب لأن ينشغل المرء بعيوب الآخرين وذمهم والحديث عن مساوئهم، ومن عاب أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله.

٣ ـ إن العجب سبب للأمن من مكر الله به ومن الضعف بعد القوة، قال تعالى ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩].

٤ ـ عدم قبول النصيحة من الآخرين، لأنه لا يرى رأياً أفضل من رأيه ولا فضلاً لغيره عليه.

فإذا كان كذلك ضعف وانقطع؛ لأنه متجاهلٌ لعيوب نفسه، منشغلٌ بعيوب غيره، لا يرى من هو أحسن منه حالاً ومآلا.

السبب الثالث:
الكِبَر

الكِبَر في اللغة: «نقيض الصغر»[١] و«(التكبر) التعظم»[٢].

ومعنى الكِبَر في الاصطلاح: «بَطرُ الحَق، وغَمطُ النَّاسِ»[٣].

وقال الزبيدي: «الكبر حالة يختص بها الإنسان من إعجابه بنفسه، وأن يرى نفسه أكبر من غير»[٤].

إذا يكـــون الكبر: إظهـــار العامل إعجابه بنفســـه بحيث يحتقر الآخرين في أنفســـهم وأعمالهم وينال من ذواتهم ويترفع عن قبول الحق منهم.

فمن اتصف بهذه الصفة الذميمة، منعته من قبول النصح والتوجية والإرشـــاد، ومن كان هذا حاله لا محالة فهو في ضعف مســـتمر وذلك أن الكِبَر هو بطر الحق وغمط الناس.

(١) لسان العرب، مادة «كبر» ٥/ ١٢٦.

(٢) مختار الصحاح، مادة «كبر»، ٢٦٥.

(٣) وأصل هذا ما ثبت عند الأمام مســلم في صحيحه، ١/ ٩٣، رقم الحديث (٩١) من حديث عبد الله بن مســعود، عــن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقــال ذرة من كبر» قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة، قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس».

(٤) تاج العروس، للزبيدي ١٤/ ٩.

فالمتكبـر الذي لا يقبل التوجيه والارشـاد مـن الأخرين مكتفٍ بعملـه، وإذا أكتفى بـه دون زيادة في الطاعـات كان ذلك نقصاً وفتورا.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في نونيته:

وسـل العـياذ مـن التـكبر والـهوى
فـهـمـا لـكـل الـشـر جـامـعـتان

وهـمـا يـصـدان الـفـتى عـن كـل طر
ق الخـيـر إذ فـي قـلـبـه يـلـجـان

فـتـراه يمـنـعـه هـواه تـارة
والـكـبـر أخـرى ثـم يـشـتـركـان

والله مـا فـي الـنـار إلا تـابـع
هـذيـن فـاسـأل سـاكـني الـنـيـران

والله لـو جـردت نـفـسـك مـنـهـمـا
لأتـت إلـيـك وفـود كـل تـهـان[1]

فالكبـر والتكبر داء عضال يصيب العبد من حيث لا يشـعر به، وسـرعان ما يفتك به، ويضعف همته ونشـاطه، وإذا استفحل في قلبه وتمكن منه كان سـبباً لضعفه وفتوره في جميع العبادات، لأنه يحول بين صاحبه وبين ربه.

---

(١) نونية ابن القيم، ٢٨٧.

السبب الرابع:
ضعف محبة الله ورسوله ﷺ في قلب العبد

إن من أبرز الأسباب المؤدية للفتور في العبادة ضعف محبة الله ورسوله ﷺ في قلب العبد، فإن القلب إذا ضعفت فيه هذه المحبة تبأطا وتكاسل عن فعل العبادات، لان المحب الصادق لا يفتر عن طاعة محبوبه والتقرب إليه بالنوافل وطلب رضاه، وقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى ذلك بقوله ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١] فهذه الآية فيها امتحان واختبار لمن أدعى حب الله ورسوله ﷺ، فمن كان صادقاً في حبه كان قوي الإيمان، نشيطاً في العبادة، مسارعاً إلى فعل الطاعات، ومن ضعفت محبته ضعفت عبادته تبعاً لهذه المحبة، قال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ: «لو أن العباد علموا حب الله ـ عز وجل ـ لقل مطعمهم ومشربهم وملبسهم وحرصهم؛ وذلك أن ملائكة الله أحبوا الله فاشتغلوا بعبادته عن غيره حتى أن منهم قائما وراكعا وساجدا منذ خلق الله ـ تعالى ـ الدنيا ما التفت إلى من عن يمينه وشماله اشتغالا بالله ـ عز وجل ـ وبخدمته»[١].

---

(١) حلية الأولياء، ٨/٣٦.

ووصف الله الملائكة ومدحهم وأثنى عليهم بهذا الوصف ذكره الله في كتابه فقال ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ۝﴾ [الأنبياء: ٢٠] وذلك لشدة محبتهم لله ويقينهم به.

ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**»[1].

وهذه الثلاثة إن توفرت فهي علامة ثبوت الإيمان وإن ضعفت فهي علامة ضعف الإيمان وفتوره.

ومن ادّعى محبة الله أو محبة رسوله، ولم يطعهما، ولم يتخلق بأخلاقهما، وتكاسل في إقامة العبادات كما أمر الله ورسوله فدعواه كاذبة تحتاج إلى دليل.

«ومثل هذا الموقف لون من ألوان التناقض الذي لا يقره شرع ولا عقل، ونوع من أنواع الازدواجية المقوتة التي يلبس فيها الإنسان لباسين ويتحلى بحلتين. فمن أهم ركائز المحبة إظهار الطاعة، والانقياد للأوامر الإلهية»[2].

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، ١٢، رقم الحديث (٢١)، ومسلم، ١/٦٦، رقم الحديث (٦٧).

(٢) التفسير الوسيط، لوهبة الزحيلي، ١٨٨.

لذا قال بعض المتقدمين:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمري في القياس بديع
لو كنت تظهر حبه لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع[(١)]

فمن لم تدفعه المحبة إلى فعل العبادات من صلاة وصيام وحج وصدقة وذكر لله وغيرها من الطاعات دعواه كاذبة، قال شيخ الإسلام: «المحبة الواجبة تستلزم لفعل الواجبات وكمال المحبة المستحبة تستلزم لكمال فعل المستحبات والمعاصي تنقض المحبة»[(٢)].

وهنا تنبيه مهم: لا أقصد بضعف محبة الله ورسوله ﷺ في قلب العبد بأن القلب خالٍ منها تماماً، بل المقصود منها أن المحبة كالإيمان فإذا ضعفت المحبة استلزمت ضعفاً في الإيمان وفتوراً في العبادة، وإذا انعدمت دخل القلب في الشك والنفاق الأكبر فالذي ليس في قلبه محبة لله ورسوله ليس له من الدين نصيب، أما أهل الفتور لا يقال عنهم أنه ليس عندهم محبة لله ورسوله بل يقال محبتهم ناقصة كنقص الإيمان الذي يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية.

---

(١) البيت نسب لغير واحد وبحثت عنه ولم أجده. ونقلته من: قاعدة في المحبة، لشيخ الاسلام ابن تيمية، ٧٣.

(٢) المرجع السابق، ٧٣.

السبب الخامس:
حب الدنيا وطول الأمل

«أمرنـا الله ـ تعالـى ـ بالعبادة وأن تكـون أعمالنا للآخرة التي مـن أجلها خلقنا، وجعل لنا الدنيا وسـخرها لنا بما فيها من مآكل ومشـارب ومساكن ومناكح لنسـتعملها في طاعته ولتكون عوناً لنا على عمل الآخرة»(١)، إلا إن كثيرا من العباد زاغوا عن هذه الحكمة حتى أصبحت الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم ولا يخفى على عاقل من العقلاء أن أعظم الأسباب المؤدية إلى قسوة القلوب وفتورها عن العبـادة، وذلك أن حب الدنيا إذا طغـى على القلب ضعف إيمانه شيئاً فشيئاً حتى تصبح العبادة ثقيلة مملة، حتى يجد لذته وسلواه في الدنيا وحطامها فإذا كان كذلك نسـى الآخرة أو يكاد ينساها، وإذا أقبـل العبد على الدنيا غفل عن هادم اللذات، ويتمكن طول الأمل من قلبه، وما اجتمعت هذه البلايا في شـخص إلا أهلكته؛ وذلك أن للدنيا تأثيراً على قلب المؤمن وإيمانه، وذلك أن حب الدنيا يعمي القلب ويسـتدرجه إلى ما هو أشـد من ذلك حتى يبتعد عن الله ـ عز وجل ـ، وعندها تسـقط مكانته عند الله، ولا يبالي الله في أي مزلق سقط.

---
(١) التدابير الواقية من انتكاسة المسلم، لسارة بنت عبدالرحمن الفارس، ٥٦.

وقد حذر الله ـ عز وجل ـ من الإنغماس بالدنيا والإغترار بها فقال ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ـ ١٦].

فالآية تشير إلى أن الإنغماس في حب الدنيا وشهواتها يؤدي إلى صرف المرء عن علو الهمة والمسارعة للخيرات، ويؤدي إلى إحباط العمل والخسران في الآخرة؛ ذلك لأن دنياه هي جل همه واهتمامه، يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة»[١].

فالدنيا بمغرياتها وشهواتها ومفاتنها وملذاتها إذا أقبل عليها العبد إقبالاً لا ضابط له قطعت عليه الطريق إلى الله وإلى رضاه ـ سبحانه وتعالى ـ وأصبح دني الهمة لا يفكر إلا فيها ولا ينشغل إلا بها، ولا يتطلع إلا لها، فعن كعب بن مالك الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال، والشرف لدينه»**[٢] يشير الحديث إلى أنه لا يسلم للمرء دينه وعبادته مع حرصه على المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين فيها إلا القليل، فكلما أقبل القلب على الدنيا وشهواتها ابتعد عن القيام

---

(١) الفوائد، ٩٦.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، ٢٥/ ٦٢، رقم الحديث (١٥٧٨٤).

بعبادته كما ينبغي على الوجه الذي يرضاه الله.

ومما سبق يتبين أن للدنيا أضراراً كثيره تضر بدين العبد من عدة وجوه:

- إن حبها يفضي إلى تعظيمها، والانشغال بها والانصراف عن عبادة الله والخضوع إليه.

- إن العبد إذا أحبها أعمت بصيرته فلا يرى مصلحة إلا بعين الدنيا وشهواتها ؛ لأنها أكبر همه ومبلغ علمه .

- إنها تضعف محبة العبد لربه، فكلما أقبل العبد على الدنيا ابتعد عن الله وإذا ابتعد لزمه الضعف والفتور.

السبب السادس:
التقليل من شأن الرقائق

يخفى على كثير من السالكين ما للرقائق من أثر على صلاح القلوب التي بصلاحها صلاح للجوارح والأركان، فمن أجل ذلك كان التقليل من شأن الرقائق سبب من أسباب الفتور في العبادة.

فالتقليل من المواعظ والرقائق أو من شأنها يضعف عبادة العبد لما لها من الأثر الواضح على صلاح القلوب التي إذا صلحت استلزمت صلاح عبادات الجوارح والأركان، قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦].

أي: «ما يذكرون به ترغيباً وترهيباً من أوامر الله ـ تعالى ـ لهم بالطاعة والتسليم لكان ذلك خيراً في الحال والمآل، ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ للإيمان في قلوبهم وللطاعة على جوارحهم، لأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والحسنة تنتج حسنة، والسيئة تتولد عنها سيئة. ويقول تعالى: ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾ [النساء: ٦٧] يريد لو أنهم استجابوا لنا وفعلوا ما أمرنا به من الطاعات، وتركوا ما نهيناهم عنه من المعاصي لأعطيناهم من لدنا أجراً يوم يلقوننا ولهديناهم في الدنيا ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٨] ألا وهو الإسلام الذي هو طريق الكمال والإسعاد في الحياتين وهدايتهم

إليه هي توفيقهم للسير فيه»[١].

فالقلب إذا ابتعد عن الرقائق والمواعظ قسى ولابد للقسوة من فتور في الطاعات وتكاسل في النوافل والعبادات، ولهذا كان من شأن النبي ﷺ أن يتخول أصحابه بالموعظة مع إيمانهم الراسخ وعملهم الصالح، ففي الحديث عن حنظلة، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فوعظنا، فذكر النار، قال: ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة، قال: فخرجت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له، فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر، فلقينا رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله نافق حنظلة فقال: «مه» فحدثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل، فقال: **«يا حنظلة ساعة وساعة، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر، لصافحتكم الملائكة، حتى تسلم عليكم في الطرق»**[٢].

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ تعليقاً على قوله «نافق حنظلة»: «معناه أنه خاف أنه منافق حيث كان يحصل له الخوف في مجلس النبي ﷺ ويظهر عليه ذلك مع المراقبة والفكر والإقبال على الآخرة فإذا خرج اشتغل بالزوجة والأولاد ومعاش الدنيا»[٣].

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لابي بكر الجزائري، ١/ ٥٠٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) المنهاج شرح النووي على مسلم، ١٧/ ٦٦.

ولــو لم يكن للرقائق أثرا ماً خاف حنظلة ـ رضي الله عنه ـ من غفلتــه إذا دخل على بيت أهله وضاحــك الصبيان ولاعب المرأة، ولهذا خرج معاتباً نفسه على تقصيره وغفلته.

فالابتعاد على الأجواء الإيمانية من الرقائق والمواعظ مدعاة لفتور النفس وتكاســلها عن العبادات، فيقسو القلب، ويضعف فيه نور الإيمان.

وخلاصــة ذلك فإن الابتعاد عن الرقائــق والمواعظ والتقليل من شــأنها سبب لضعف إيمان العبد وفتوره عن الطاعة وعكسه كذالك فإن مجالس الرقائق والمواعظ تدفع المؤمن إلى محاسبة النفس كلما انقطع عن العبادة وفتر عنها.

المطلب الثاني :
الأسباب الخارجية للفتور في العبادة

لا شك أن الإنسان ابن بيئته فهو يتأثر بمن حوله من الناس سواء كانوا صالحين أم غير صالحين، ســواء أكان التأثير عن طريق مباشر أم غير مباشــر، ســواء أكان ذلك التأثير خيراً وعونــاً للعبد على الثبات على العبادات أو شراً وتثبيطاً عن العبادات وهذه سنة الله في خلقه؛ إذ جعل منهم الكافر والمسلم والمؤمن والمنافق، يقول الدكتور عبدالكــريم زيدان ـ رحمه الله ـ مبيناً مدى تأثر الإنســان بالمحيط الخارجي له: «الإنســان كائن اجتماعــي يتأثَّر بالمجتمع الذي يعيش فيــه، فتمرض روحه أو تهزل، وتصح وتقوى تبعًا لصلاح المجتمع أو فساده»(١).

وســوف أتطرق في هذا المطلب إلى بيان تلك الأسباب الخارجية التي أثرت على عبادة العبد وأدت به إلى الفتور في العبادات.

---

(١) أصول الدعوة، ١٣٠.

السبب الأول:
فتنة الزوجة والأولاد

قد يتعجب المرء من هذا السبب وكيف يكون ذلك وقد شرعه الله لعباده، ولكنه واقع ملموس فمن تتبع واقع كثيرٍ من المتعبدبن يجد ذلك الأثر والضعف والإنصراف عن العبادة والتنازل عن النوافل والواجبات، وذلك لعدم الالتزام بالمنهج النبوي في إختيار الزوجة الصالحة التي من شأنها عون زوجها على طاعة ربه، والقيام بتربية أولاده التربية الصالحة. قال تعال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التغابن: ١٤ ـ ١٥].

وهذه الآية داله على تحذير المؤمنين الصادقين العابدين من أزواجهم وأولادهم فقد يكون من هؤلاء أعداء له يَحُولون بينه وبين فعل العبادات ويشغلونه عنها.

وجاء في هذا المعنى حديث حنظلة ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فوعظنا، فذكر النار، قال: ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة، قال: فخرجت فلقيت أبا بكر فذكرت ذلك له، فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر،

فلقينا رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله نافق حنظلة فقال: «مه» فحدثته بالحديث، فقال أبو بكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل، فقال: **«يا حنظلة ساعة وساعة، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر، لصافحتكم الملائكة، حتى تسلم عليكم في الطرق»**[1] فالانشغال المفرط بالزوجة والأولاد والمبالغة في تأمين مستقبلهم، عرضة للفتور في العبادات.

وهنا يجدر التنبيه لأمور مهمة:

- لا يُقصد بذلك أن تأمين مستقبل الزوجة والأولاد والحرص عليهم يلزمه الفتور في العبادات، وإنما يقصد بذلك المبالغة في ذلك وتقديم ذلك على العبادات.

- لا يُظن أن هذا شأن جميع الزوجات والأولاد، وإنما خرج هذا مخرج الغالب، بل قد تكون الزوجة والأولاد صالحين مصلحين مقيمين متعبدين لله بما شرع وقد يكونون عوناً للعبد على إقامة عبادته.

- ولا يقصد بذلك من كان مجتهداً بالعبادة ثم خفف منها للقيام بحقوق زوجته وأولاده وأعطى كل ذي حق حقه، فإنه يعاب على الإنسان إنشغاله عن القيام بحقوق من يعول وعدم تربيتهم التربية الإيمانية وتوفير ما يحتاجونه من شؤون الحياة حتى وإن كان ذلك الإنشغال بالعبادات، بل لابد من العمل على إيجاد توازن بينهما دون إفراط ولا تفريط.

---

(١) سبق تخريجه.

السبب الثاني:
الإقامة في البيئة الفاسدة

ويقصد بالبيئة هو ذلك المحيط الذي يعيش الإنسان في وسطه سواء كان ذلك الوسط في الأسرة أم المجتمع أم الجيران. يقول العلامة ابن خلدون ـ رحمه الله ـ: «الإنسان مدنيّ بالطّبع ولابد له من إجتماعٍ»[1] فالإنسان يحب الاجتماع والأنس بمن حوله وقد يؤثر ذلك سلباً او إيجاباً على دين العبد وصلاحه وفساده.

وللبيئة أثر كبير على عبادة العبد إذ هي المحرك والباعث له في القيام بها أو الانصراف عنها، فإذا كانت هذه البيئة فاسدة أفسدت على العبد عبادته، وقد شهدت النصوص الشرعية بذلك، منها ما رواه أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن نبي الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال: **«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء»**[2].

(١) تاريخ ابن خلدون، ١/ ٥٤.

(٢) صحيح مسلم، باب «قبول توبة القاتل»، ٤/ ٢١١٨، رقم الحديث (٢٧٦٦).

فالإقامة في البيئة الفاسـدة التي لا تعتني بأمور الدين، ولا تهتم بـه، هي من الأسـباب التي توجه ضغطاً علـى العبد لترك عبادته وفتوره عنها، فـإذا كان ضعيف العزيمة في التصدي لذلك المجتمع المحيط به، سـرعان ما يتأثر به، لذا نجد أن الإسـلام يأمر بالهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام كما قال الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء: ٩٧].

فـإذا عاش العبد في تلـك المجتمعات الفاسـدة دب الفتور في أوصاله، وسري التراخي إلى عبادته.

السبب الثالث:
صحبة أهل الهمم الضعيفة

إن مصاحبة أهل الهمم الضعيفة، من أخطر الأسباب المؤدية لفتور العبد عن العبادات ولقد أمر الله - عز وجل - نبيه ﷺ في اختيار من يجالسهم ويصاحبهم فقال سبحانه وتعالى ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

أي: «اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء، وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع ولا تكن مطيعا ولا محبا لطريقته ولا تغبطه بما هو فيه»(١).

فمجالسة الحريص على عبادته والمقيم لشعائر ربه تُزهد في الدنيا لأن الطباع مجبولة على الاقتداء بمن تخالطه من حيث لا يدري، وكذلك مجالسة أصحاب الهمم الضعيفة تزهد العبد بعبادة ربه

---
(١) تفسير ابن كثير، ٥ / ١٥٢.

والخضـــوع إليه، فعن أبي موســـى ـ رضي الله عنـــه ـ، عن النبي ﷺ، قـــال: «**إنما مثل الجليس الصالح، والجليس الســوء، كحامل المســك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة**»(١).

فصاحـــب الهمة الضعيفة يحث صاحبه على فعل المنكرات وترك الأعمـــال الصالحات، فكلما أراد العبـــد العودة لعبادته صعبَ عليه صاحبـــه وثبطهُ عنها، وقد قيل: قل لي من تصاحب، أقل لك من أنت، فالصاحب لابد أن يتطبع بطباع صاحبه مع مرور الوقت.

قـــال الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ متحدثـــاً عن هذا التأثير: «لا يتفق اثنان في عشرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر حتى الطير ورأى بعضهم مرة غرابا مع حمامة فاســـتبعد المناسبة بينهما ثم تأمل فوجدهما أعرجين فإذا أردت أن تعرف من غابت عنك خلاله بموت أو غيبة أو عدم عشـــرة امتحن أخلاق صاحبه وجليسه بذلك وذلك يدل على كماله أو نقصه كما يدل الدخان على النار»(٢) ويقول ابن قدامة المقدســـي ـ رحمه الله ـ في مصاحبـــة أهل الهمم الضعيفة: «فمجالسة الفســـاق تبعث على مساوقة طباعهم وأخلاقهم الرديئة، وهـــو داء دفين قل ما ينتبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، وذلك أنه

---

(١) متفـــق عليـــه، البخاري، ٧/٩٦، رقم الحديـــث (٥٥٣٤)، ومســـلم، ٤/٢٠٢٦، رقم الحديث (٢٦٢٨).

(٢) إحياء علوم الدين، ١/٥٥٢.

قل أن يجالس الإنسان فاسقاً مدة مع كونه منكراً عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لوجد فرقاً في النفور عن الفساد، لأن الفساد يصير بكثرة المباشرة هيناً على الطبع ويسقط وقعه واستعظامه»[١] ويؤكد النبي ﷺ على خطورة ذلك فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «**الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[٢].

فمصاحبة الفاترين، الذين لا تتعدى همومهم الأكل والشرب والتنزه، تؤثر على العبد، حيث تختلط همومه وهمومهم حتى يأخذ مسلكهم ويسير على نهجهم فيتثاقل عن العبادات وتقل رغبتها فيها والمحافظة عليها.

ولله در القائل:

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى حليماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ما شاه
وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه[٣]

وقال الشاعر:

لا تصحب الكسلان في حالاته
كم صالح بفسادِ آخرَ يفسدُ

(١) مختصر منهاج القاصدين، ١٦٧.

(٢) رواه الترمذي في سننه، ٤/٥٨٩، رقم الحديث (٢٣٧٨) وقال «حديث حسن غريب».

(٣) القائل هو علي ابن ابي طالب ـ رضي الله عنه ـ، نقلاً عن: إحياء علوم الدين، ٢/١٧١.

عـــــدوى الـبـلـيـــد إلـــى الجـلـيـد سـريـعــة
والجــمــر يــوضـــــع فـــي الــرمــال فـيـخـمـدُ(١)

ومن مما ســبق تتبين آثار مصاحبــة أهل الهمم الضعيفة على دين العبد واستقامته:

ـ الإعانة على المعصية وعدم تقوى الله وطاعته، فإن الصاحب إن لم يُشغل بطاعة الله وعبادته أشغلَ بمعصيته والابتعاد عنه.

ـ الغفلة وإتباع الأهواء، فصحبة الغافلين أصحاب الهمم الضعيفة تعين على التكاســل فــي العبادات والتثاقــل عنهــا، قــال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

ـ صاحــب الهمــة الضعيفة يهون على صاحبة تــرك العبادات، ويزين له هجرانها، ويرغبه بتوافه الأمور.

ـ صاحب الهمة الضعيفة يغلق على صاحبه باب التوبة من الفتور والعودة إلى طريق الجادة؛ إذ أنه يمنعه كلما حدثته التوبة والعودة.

ـ إن صحبتهــم تحرم العبد من مجالســة الصالحــين وأهل الخير والصلاح.

ـ «أن في مجالســتهم تضيعاً للوقت الذي سيحاسب العبد على التفريط فيه يوم القيامة»(٢).

---

(١) القائل: أبو بكر الخوارزمي، نقلا عن: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي، ٣/٣٢٨.

(٢) الصاحب ساحب، لخالد بن محمد، ٥٤.

فالصحبة منعطف خطير ينبغي أن يتنبه له الإنسان فالقرين السيء لا يقتصر أثره على فســـاد عبادة المـــرء وفتوره عنها، بل قد يتجاوز إلى إنتكاسته.

السبب الرابع :
الاستسلام للمعوقات

يظن كثيرٌ من السالكين أن الطريق إلى الله بإقامة شعائره الظاهرة والباطنه طريقًا محفوف بالورود والأزهار فعند أدنى مضايقه، يضعف ويكاسل عن العبادات ويغفل عن حقيقة العبودية لله ـ جل في علاه ـ، قال الله تعالى ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢] «وقوله ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع، وقوله ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ أي يتركون بغير اختبار، ولا ابتلاء وليس الأمر كما حسبوا بل لا بد أن نختبرهم حتى يتبين المخلص من المنافق والصادق من الكاذب والثابت في الدين من المضارب فيه»[1].

فالطريق إلى الله محفوف بالمكاره والمعوقات التي تصد العبد عن الافتقار إلى الله، واللجوء إليه بالخضوع والتعبد له، فعن أنس بن مالك، ـ رحمه الله ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[2].

---

(١) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبو الطيب محمد صديق خان، ١٠/ ١٦٣.

(٢) صحيح مسلم، ٤/ ٢١٧٤، رقم الحديث (٢٨٢٢).

قال النـــووي: «فأما المكاره فيدخل فيهـــا الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها والصبر على مشاقها»[١].

فالاستسلام للمكاره وعدم الصبر عليها من أخبث مكائد الشيطان التي تمنع العبد عن العودة لطريق الجادة وذلك بتعظيم تلك المعوقات الخارجية ســـواء أكانت عن طريق المجتمع أو الأسرة أو الجلساء وقد يكون ذلك المعوق برودة الماء في الشتاء وحرارة الشمس في الصيف «وقد يواجه سخرية لاذعة، وكلمات جارحة من إخوانه أو أخواته، وربمـــا من أمه وأبيه، وقد لا يطيق الثبـــات والمواجهة»[٢] وقد يمنعه من التعبد حصول موقف معين، أو يقف مستسلماً لكلام الناس من حولـــه ووصفه بالمتذبذب الذي لا يثبت على حال فيزداد فتوراً على فتوره خوفاً من كلام الناس وتتبعهم له إذا رجع وتاب، وقد يستسلم لملهيات الدنيا وصوارفها دون مجاهدة لها، ونحو ذلك من المعوقات حتى تعظم في نفسه ويستسلم لها دون أدنى مجاهدة أو مصابرة.

فإذا استسلم لتلك المعوقات ضعف في عبادته وتكاسل في إقامتها، لكثرتها وتثبيط الشـــيطان له بأنه لا يستطيع مواجهة ذلك وإنه مهما صبـــر فلا بد له أن يضعف ويفتـــر، وعليه فلا حاجة له بها، ولو أدرك العبـــد حقيقة تلك المعوقات وضعفهـــا إذا واجهت همة عالية وعزيمة قوية تدفع تلك المعوقات.

---

(١) المنهاج شرح النووي على مسلم ،١٧/ ١٦٥.

(٢) الحور بعد الكور، لمحمد الدويش، ٤٩.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة
يا سلعة الرحمن ليس ينالها
في الألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها
إلا أولو التقوى مع الإيمان(١)

وقال:

يا سلعة الرحمن كيف تصبر الـ
ـخطاب عنك وهم ذوو إيمان
يا سلعة الرحمن لولا أنها
حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف
وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة
ليصد عنها المبطل المتواني
وتنالها الهمم التي تسمو إلى
رب العلى بمشيئة الرحمن(٢)

فعلى المؤمن أن يدرك هذه الحقيقة وأنه لابد له من الصبر والمصابرة والمجاهدة في هذا السبيل لينال الثمرة الكبرى من عبادته وهو رضى الله وحده.

---

(١) نونية ابن القيم، ١/ ٢٥٤.

(٢) المرجع السابق، ١/ ٢٥٥.

المطلب الثالث:
الأسباب السلوكية للفتور في العبادة

يقصد بالأسباب السلوكية هو ذلك المنهج الذي أتخذه العبد ليكون طريقاً ومنهجاً يسير عليه في حياته كان ذلك خيراً او شراً، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في هذا المعنى: «السلوك هو بالطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق وهذا كله مبين في الكتاب والسنة؛ فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لا بد للمؤمن منه»[(١)].

فالسلوك إن لم يبن على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، تخبط وتشتت ولم يثبت على حال، ومن تأمل هذه الأسباب التي تشكلت منها شخصية العبد وسلوكه الذي نشأ وتربى عليه، يجد الأثر الواضح في تخبط العبد وفتوره بين فترة وأخرى، فتراه تارة مجتهداً في عبادته زاهدا في طلب العلم وتارة طالباً للعلم زاهداً في عبادته أو تراه متشدداً في نفل متساهلاً في فرض أو يشتدد فترة ويتساهل فترات لعدم وضوح الهدف الذي يسير إليه.

و«للقارئ أن يتساءل: كيف ينشأ التخطيط والنهج إذا عانى العبد من جهل بمنهاج الله وجهل بالواقع واضطراب في الممارسة

(١) مجموع الفتاوى، ١٩/ ٢٧٣.

الإيمانية. . . ولا بد لهذا أن ينطلق من النية الخالصة لله ـ سبحانه وتعالى ـ، ثم يرسم الدرب الذي يسير عليه، ويحدد الأساليب والوسائل ويحدد كذلك الأهداف»[١].

وهذه الأسباب قد يغفل عنها العبد، بل قد يظن بعضها طريقاً للثبات على العبادات وهي على خلاف ذلك كالغلو والتشدد فيها مثلا.

ومن أبرز الأسباب السلوكية التي كانت سبباً في فتور العبد وضعفه بين الحين والآخر ما يلي:

---

(١) الصحوة الإسلامية إلى أين؟ لعدنان علي، ١٠٧.

السبب الأول:
الابتعاد عن العلم الشرعي

إن عدم التوازن بين شؤون العبد العلمية والتعبدية أورث فتوراً لدى كثير من السالكين، فترى بعض المتعبدين من يعاقب نفسه إذا تخلف عن الصلاة مثلاً بما لم يفعله النبي ﷺ كالصلاة أربعين ركعة مما يشق علـى النفس لكي لا يعود إلـى ذلك، وجهل هذا العبد أن هذا من الابتداع في الدين وأنه مما يشق على النفوس الاستمرار عليه مما يودي إلى الفتور العاجل بل قد يصل إلى الانقطاع عنها بالكلية.

«فالجهل داء قاتل، فكلما ضعف العلم الشرعي كان صاحبه أكثر عرضة لأن يصاب بداء الفتور وهو لا يعلم الأثر المترتب على العمل مما يضعف من عزيمته»(١)، ولقد أشار الله ـ تعالى ـ إلى هذا بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر: ٩].

أي «لا يستوون عند الله وعند عقلاء الأمة لأن العالم من ينتفع بلبّه لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: بآيات الله والجهال لا قلوب لهم حيّة تعي ذلك فلا يتذكرون ولا يذكرون»(٢).

---

(١) الفتور.. الإيمان بين الزيادة والنقصان، ١٤.

(٢) بيان المعاني، لعبد القادر بن ملا آل غازي، ٣/ ٥٢٧.

فالعلم الشرعي يفيد التذكر والاتعاظ وحياة القلب على الدوام ومن ابتعد عنه فتر عن طاعة ربه لجهله بآياته وحكمه وعظاته.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] والآية هنا تشير إلى أمرين:

١ ـ مفهوم الموافقة: وهو أن العلم يورث الخشية والتقوى وحسن الاستقامة.

٢ ـ مفهوم المخالفة: وهو أن الجهل يورث القسوة والأمن من مكر الله.

ومن صور الابتعاد عن العلم الشرعي:

ـ قراءة القرآن الكريم والسنة النبوية من غير تدبر وتفكر في أسرارها وحكمها مما يساعد العبد على تقوية إيمانه ويقينه بالله.

ـ عدم الإتصال بكتب السلف والكتب الإيمانية التي تحيي القلب، وتحرك الدوافع الإيمانية الكامنة في نفسه مثل كتب العلماء المجيدين في الرقائق والوعظ والذين يحسنون عرض العقيدة بطريقة تحيي القلب، مثل كتب العلامة ابن القيم وابن رجب وغيرهم، والانقطاع عن مثل هذه الكتب مع الإغراق في قراءة الكتب الفكرية فقط أو كتب الأحكام المجردة عن الأدلة أو كتب اللغة والأصول مثلاً من الأشياء التي تورث أحياناً قسوة القلب[1].

(١) انظر: ظاهرة ضعف الإيمان، لمحمد بن صالح المنجد، ٢٥.

ـ الجهــل بفقه الأولويات وعدم معرفــة فاضلها ومفضولها، مما يــورث التبخط بــين الأعمال وعدم الثبات عليهــا، وإنفاق الوقت والجهــد وفوت ما هو أجل وأعظم من الواجبات في ســبيل تحقيق السنن والمستحبات.

وقد وردت الآيات والأحاديث في بيان تفاضل الأعمال واختلاف درجاتها، قال تعالــى ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [التوبة: ١٩].

فالآيــة فاضلت بين آمرين كلاهما طاعة وعبادة لله، وبيت أنهما لا يستويان عند الله.

يعنــي أن أموراً بعضها أولى من بعض، فبعض الأعمال آكد من بعض كأركان الإســلام فالحج مثلا آكد من العمرة، وصلاة الفرض آكــد من الوتر، والوتر آكد مــن النوافل الأخرى، وبعض الأعمال أحــب إلى الله من بعض كالصلاة في وقتهــا وبر الوالدين والجهاد وبعض النفقات أعظم أجرا من بعض كالنفقة على النفس والأهل، والفقه في هذه الأمور ضروري حتى لا يختل الجانب التعبدي لدى العبد فمن أجتهد في قيام الليل وثم فرط في صلاة الفجر أو تكاسل عن إقامتها مع جماعة المسلمين لم يُوفق لمراد الله، يقول ابن الجوزي ـ رحمــه الله ـ في بيان هذا المعنى: «وقد لبس إبليس عَلَى جماعة من المتعبدين فأكثروا من صلاة الليل وفيهم من يســهره كله ويفرح

بقيام الليل وصلاة الضحى أكثر مما يفرح بأداء الفرائض ثم يقع قبيل الفجر فتفوته الفريضة أَوْ يقـم فيتهيأ لها فتفوفته الْجَمَاعَة أَوْ يصبح كسلان فلا يقدر عَلَى الكسب لعائلته»[1].

فجهـل العابـد بأولوية الأعمـال على بعضهـا البعض وتقديم بالمسـتحبات على غيرها قد يودي إلى الفتور في الواجبات التعبدية وهي الأصل في التعبدات.

---

(١) تلبيس إبليس، ١٢٧.

السبب الثاني:
عدم التوازن في العبادة

إن من الأسباب الداعية للفتور في العبادة عدم التوازن في مختلف شـؤون الحياة سـواء كانت تعبدية ام اجتماعية ام نفسية ام صحية ونحوها مما يساهم في إيجاد التوازن السليم في شخصية المسلم لكي يحقق مراد الله في تحقيق العبودية الخالصة إليه ـ سـبحانه ـ، فعن أبـي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**إن الدين يسـر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة**(١) **والروحة**(٢) **وشيء من الدلجة**(٣)»(٤).

قـال ابن حجر ـ رحمه الله ـ معلقـاً على الحديث: «أي الزموا السداد وهو الصواب من غير إفراط ولا تفريط»(٥).

وهذا الحديث فيه أمر بالتوازن والتوسط في جميع الأمور، فالتوازن يحقـق المراد من مداومة العبد على العبادات دون كل أو ملل، وفيه

(١) الغُدوة: ما بين صلاة الغداة وطلوع الشـمس. يُنظر: لسـان العـرب، ١٥/ ١١٦، فصل «الغين المعجمة».

(٢) الروحة: الصلاة الوسطى صلاة العصر. يُنظر: لسان العرب، ٤/ ٥٧٦، فصل «العين المهملة».

(٣) الدجلة: السَّحرُ. يُنظر: تاج العروس، ٢٨/ ٤٧٠، مادة «دجل».

(٤) صحيح البخاري، باب «الدين يسر»، ١/ ١٦.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ١/ ٩٥.

تحذير لمن أخل بهذا المبدأ العظيم لما يترتب عليه من مفاسد عظيمة تودي للضعف والفتور والانقطاع عن الأعمال الصالحات، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ متحدثا عن مكايد الشيطان: «ومن كيده العجيب: أنه يشأم النفس، حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها: قوة الإقدام والشجاعة، أم قوة الانكفاف والإحجام والمهانة، فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وإضعاف همته وإرادته عن المأمور به، وثقله عليه، فهون عليه تركه، حتى يتركه جملة، أو يقصر فيه ويتهاون يه، وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلو الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به، ويوهمه أنه لا يكفيه، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة فيقصر بالأول ويتجاوز بالثاني، كما قال بعض السلف: ما أمر الله ـ سبحانه ـ بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلوّ. ولا يبالي بأيهما ظفر، وقد اقتطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتعدى. والقليل منهم جدا الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، فقوم قصر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد، وقوم قصر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتى أخرجوا جميع ما في أيديهم وقعدوا كَلا على الناس، مستشرفين إلى ما بأيديهم، وقوم قصر بهم عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضروا بأبدانهم وقلوبهم،

وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأضروا بقلوبهم وأبدانهم، وكذلــك قصر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم، وقصر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات، كالجمعة والجماعــات والجهاد وتعلم العلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام، وقصر بقوم حتى امتنعوا من ذبح عصفور أو شاة ليأكله، وتجاوز بآخرين حتى جرأهم على الدماء المعصومة، وكذلك قصر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الــذي ينفعهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به، وقصر بقوم حتى أطعمهم من العشب ونبات البريــة دون غذاء بنــي آدم، وتجاوز بآخرين حتــى أطعمهم الحرام الخالص، وقصر بآخرين حتى زين لهم ترك سنة رسول الله ﷺ من النــكاح فرغبوا عنه بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام. . . إلخ»[١].

ومن درس جوانب ســيرة النبي ﷺ وتحقيقه للتوازن المطلوب في شــؤون حياته يدرك حقيقة المراد من ذلك التنوع والتوازن هو تحقيق العبوديــة لله وحــده دون فتور وانقطاع عن العبــادات، فهو الأب والزوج والقائد والمحارب والعابد والقاضي والمربي والمستشــار وهو التاجر والمعلم إلى آخر ما تحلى به من صفات سلوكية استوعبت كل جوانب الحياة.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ١١٦ .

ومن نظر في حال أهل الفتور يجد الفرق الشاسع بينه وبين الهدي النبوي في تحقيق التوازن المطلوب.

صور عدم التوازن في العبادة كثيرة من أبرزها:

١ ـ الغلو والتشدد في العبادة.

والغلو في اللغة: «المجاوزة في القدر في كل شيء»(١).

وفي الاصطلاح: «المبالغة في الشيء، والتشديد فيه بتجاوز الحد»(٢).

ولقد حذرت الشريعة الغراء من الغلو ومجاوزة الحد في العبادة والمبالغة فيها والانقطاع إليها أو إلزام النفس بما يشق عليها أو تحريم ما أباحه الله لها، ومن ثم تكون سبباً في تضييع غيرها من الحقوق التي أوجبها الله، كحق النفس في الراحة، وحق الزوجة والأولاد في التربية والمؤانسة وغيرها من الحقوق فهذا لا يُقرب صاحبه إلى مقصوده بقدر ما يبعده عنه ويقطعه عنها.

ونصوص الشريعة كثيرة في النهي عن الغلو والتشدد في العبادة بما لا تطيقه النفس ولا يحقق المراد من تحقيق العبودية لله ومنها:

ـ قال تعالى ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ [هود: ١١٢].

---

(١) لسان العرب، ١٥/ ١٣٢. فصل (الغين)

(٢) فتح الباري، ٣١/ ٢٧٨.

أي: «القيام بوظائف العبادات من غير تفريط وإفراط مفوت للحقوق ونحوها»(١).

ـ قال تعالى ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝﴾ [الأعراف: ٣١ ـ ٣٢].

قال ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: «إن الله ـ تعالى ـ لا يحب المتعدين حده في حلال أو حرام، الغالين فيما أحل أو حرم، بإحلال الحرام وبتحريم الحلال، ولكنه يحب أن يحلل ما أحل، ويحرم ما حرم، وذلك العدل الذي أمر به وقوله ردا على من حرم شيئا من المآكل أو المشارب، والملابس، من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله»(٢).

ـ وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝﴾ [المائدة: ٨٧] ومعنى ولا تعتدو أي «على الله بتحريم طيبات ما أحل لكم أو لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله عليكم أي تترخصوا فتحلوا حراماً كما نهيتم عن التشديد على أنفسكم بتحريم الحلال»(٣).

---

(١) التفسير المظهري، لمحمد ثناء الله المظهري، ٥/ ١٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير، ٣/ ٤٠٨.

(٣) فتح البيان، ٤/ ٣٩.

ومن السنة النبوية:

ـ ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»[(١)].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «قوله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له فيه إشارة إلى رد ما بنوا عليه أمرهم من أن المغفور له لا يحتاج إلى مزيد في العبادة بخلاف غيره فأعلمهم أنه مع كونه يبالغ في التشديد في العبادة أخشى لله وأتقى من الذين يشددون وإنما كان كذلك لأن المشدد لا يأمن من الملل بخلاف المقتصد فإنه أمكن لاستمراره وخير العمل ما داوم عليه صاحبه»[(٢)].

ـ وما أخرجه البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: بينما النبي ﷺ يخطب، إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا: أبو

(١) صحيح البخاري، باب «الترغيب في النكاح» ،٧/٢، رقم الحديث (٥٠٦٣).
(٢) فتح الباري، ٩/ ١٠٤.

إســرائيل، نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يســتظل، ولا يتكلم، وأن يصوم. فقال النبي ﷺ: «**مره فليتكلم وليستظل وليقعد، وليتم صومه**»(١) قال شــيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ معلقاً على هذا الحديث «وهذا صريح في أن هذه الأعمال ليســت من القرب التي يؤمر بها الناذر. . . فمن فعلها على وجه التعبد بها والتقرب واتخاذ ذلك دينا وطريقاً إلى الله فهو ضال جاهل مخالف لأمر الله ورسوله»(٢).

ـ وما رواه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: دخل النبي ﷺ المســجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال: «**ما هذا الحبل؟**» فقالوا: هــذا حبل لزينب ـ رضي الله عنها ـ، فإذا فترت تعلقت به، فقال النبي ﷺ: «**حلـوه ليصل أحدكم نشــاطه، فإذا فتر فليرقد**»(٣) قال النووي ـ رحمــه الله ـ في بيــان معنى الحديث «وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة والنهي عن التعمق والأمرُ بالإقبال عليها بنشاطٍ وأنه إذا فتر فليقعد حتى يذهب الفتور»(٤).

فجملــة النصوص الوارده في النهي عــن الغلو في العبادة، دالة على إن الانقطاع إليها ســبب من أســباب فتــور العبد عن عبادته وإنقطاعه عنها.

---

(١) صحيح البخاري، ٨/١٤٣، رقم الحديث (٦٧٠٤).

(٢) مجموع الفتاوى، ٢٥/٢٩٢.

(٣) صحيح البخاري، ٢/٥٣، رقم الحديث (١١٥٠) واللفظ له، ومســلم، ١/٥٤١، رقم الحديث (٧٨٤).

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم، ٦/٧٣.

«ذلــك أن التنطع، أو الغلو قصير العمر، والاســتمرار عليه في العادة غير متيسر إذ الإنسان ملول، وطاقته محدودة، فإن صبر يوما على التشــدد والتعسر فسرعان ما تكل دابته، أو تحرن عليه مطيته، في السير، ونعني بها جهده البدني، والنفسي، فيسأم، ويدع العمل حتى القليــل منه أو يأخذ طريقا آخر، علــى عكس الطريق الذي كان عليــه، أي ينتقل من الإفراط إلى التفريط، ومن التشــدد إلى التسيب»(١).

ويؤكــد هذا المعنى الإمامُ الشــاطبي ـ رحمه الله ـ حيث يقول: «فاعلم أن الحرجَ مرفوعٌ عن المكلَّف؛ لوجهين:

أحدهمــا: خوف الانقطاع من الطريــق، وبغض العبادة، وكراهة التكليف، وينتظم تحت هذا المعنى الخوفُ من إدخال الفســاد عليه: في جسمه، أو عقله، أو ماله.

والثانــي: خوف الانقطاع عند مزاحمــة الوظائف المتعلِّقة بالعبد، المختلفة الأنواع؛ مثل: قيامــه على أهله وولده، إلى تكاليف أخر تأتي في الطريق، فربما كان التوغُّل في بعض الأعمال شاغلاً عنها، وقاطعًا للمكلَّف دونها»(٢).

وحين يغلو الإنســان، ويشدد على نفســه، فقد يصبر على هذا الطريق فترة من الزمن، لكنه حتماً سيكل ويفتر ويستطيل الطريق،

---

(١) آفات على الطريق، للسيد محمد نوح، ٣/ ١٣٦.

(٢) الموافقات، ٢/ ٢٣٣.

ولهذا أشار الشيخ عبدالرحمن السعدي ـ رحمه الله ـ: «وأما من شدد على نفسه فلم يكتف بما اكتفى به النبي ﷺ، ولا بما علَّمه للأمة وأرشدهم إليه، بل غلا، وأوغل في العبادات: فإن الدين يغلبه، وآخر أمره العجز والانقطاع، ولهذا قال: «**ولن يَشادَّ الدينَ أحد إلا غلبه**»[(١)] فمن قاوم هذا الدين بشدة وغلو، ولم يقتصد: غلبه الدين، واستحسر ورجع القهقرى»[(٢)].

وهنا شبهة يزل بها كثير من المتعبدين، وقد ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في مجموع الفتاوى، حيث قال «قول بعض الناس: الثواب على قدر المشقة ليس بمستقيم على الإطلاق كما قد يستدل به طوائف على أنواع من «الرهبانيات والعبادات المبتدعة» التي لم يشرعها الله ورسوله من جنس تحريمات المشركين وغيرهم ما أحل الله من الطيبات ومثل التعمق والتنطع الذي ذمه النبي ﷺ حيث، قال: «**هلك المتنطعون**» قالها ثلاثاً[(٣)].

وقال: «**لو مد لي الشهر لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم**»[(٤)] مثل الجوع أو العطش المفرط الذي يضر العقل والجسم ويمنع أداء واجبات

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) بهجة قلوب الأبرار، لعبدالرحمن السعدي، ٧٨.

(٣) أخرجه مسلم، ٤/ ٢٠٥٥، رقم الحديث (٢٦٧٠).

(٤) أخرجه البخاري، ٩/ ٨٥، رقم الحديث (٧٢٤١) وأصله: عن أنس ـ رضي الله عنه ـ، قال: واصل النبي ﷺ آخر الشهر، وواصل أناس من الناس، فبلغ النبي ﷺ فقال: «**لو مد بي الشهر لواصلت وصالا يدع المتعمقون تعمقهم، إني لست مثلكم، إني أظل يطعمني ربي ويسقين**».

أو مستحبات أنفع منه وكذلك الاحتفاء والتعري والمشي الذي يضر الإنسان بلا فائدة: مثل حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يصوم وأن يقوم قائما ولا يجلس ولا يستظل ولا يتكلم فقال النبي ﷺ «**مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه**»(١) وهذا باب واسع. وأما الأجر على قدر الطاعة فقد تكون الطاعة لله ورسوله في عمل ميسر كما يسر الله على أهل الإسلام «الكلمتين» وهما أفضل الأعمال؛ ولذلك قال النبي ﷺ «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»(٢). ولو قيل: الأجر على قدر منفعة العمل وفائدته لكان صحيحا»(٣).

وبناء على ذلك فإنه لا يلزم أن يكون الأجر على قدر المشقة، بل ما ثبت فضله، وما كان إلى الإخلاص ألزم وما كان وفق ما جاء عن النبي ﷺ.

٢ ـ الإسراف ومجاوزة الحد في المباحات:

الإسراف في اللغة يطلق ويرد به معنيان:

«الأول: ما أنفق من غير طاعة، والثاني: التبذير ومجاوزة الحد»(٤).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، ٨/ ٨٦، رقم الحديث (٦٤٠٦).

(٣) مجموع الفتاوى، ١٠/ ٦٢٣.

(٤) لسان العرب، ٨/ ١٤٨.

وفي الاصطلاح: هو «صرف الشيء فيما ينبغي زائداً على ما ينبغي»(١).

فالإسراف هو مجاوزة الحد في استهلاك المباحات، بالمبالغة في المآكل والمشارب والملابس والمراكب أو غير ذلك من المباحات، والاهتمام المبالغ فيها، كالمداومة على لعب الكرة، وفضول الكلام أو إهدار الوقت في متابعة مواقع التواصل الاجتماعي دون فائدة ونحوها من المباحات، قال تعالى ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف: ٣١].

أي «كلوا مما أحل الله لكم واشربوا، ولا تسرفوا بتحريم ما أحل الله، وشرع ما لم يشرع لكم فالزموا العدل، فإنه ـ تعالى ـ لا يحب المسرفين فاطلبوا حبه بالعدل، واجتنبوا بغضه بطاعته وطاعة رسوله ﷺ»(٢).

وهذا السبب قد لا يُنتبه له، وهو يفعل فعله في النفوس فتخلد إلى الأرض وتثقل عن الطاعات، بل قد يتركها بالكلية إذا تعلق قلبه بالمباحات وتمكنت الدنيا من قلبه والعياذ بالله.

قال تعالى ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦].

---

(١) التعريفات، للجرجاني ١/ ٢٤.

(٢) أيسر التفاسير ٢/ ١٦٥.

أي: «سكن إلى الحياة الدنيا في الأرض، ومال إليها، وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة، واتبع هواه، ورفض طاعة الله وخالف أمره»(١).

وقال تعالى ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨].

أي: «تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار، ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِ ۚ﴾ أي: ما لكم فعلتم هكذا أرضا منكم بالدنيا بدلا من الآخرة»(٢).

وقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

أي: «لا يسرفون فينفقون في معصية الله، ولا يُقترون فيمنعون حقوق الله تعالى»(٣).

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة»(٤).

وقال الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٦] أي: «الله وكل باطل ألهى عن الخير، ولَهْوَ الْحَدِيثِ أي: السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها، والتحدث

(١) جامع البيان، ١٣/ ٢٦١.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٥٣.
(٣) جامع البيان، ١٩/ ٢٩٨.
(٤) الفوائد ٩٦.

بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام»[١].

وذكر المفسرون أنها نزلت في النضر بن الحارث، وكان يتجر إلى فارس، فيشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بأحاديث رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فيستمحلون حديثه ويتركون استماع القرآن[٢].

وقد وبخ الله ـ عز وجل ـ اللاعبين والمفرطين المنغمسين بالمباحات، الغافلين عن ذكر الله وعبادته بقوله ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠].

المراد بالآية «إنكم لم تؤمنوا حتى تنالوا نعيم الآخرة، بل اشتغلتم بشهوات الدنيا ولذائذها عن الإيمان والطاعة، وأفنيتم شبابكم في الكفر والمعاصي، وآثرتم الفاني على الباقي، فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من النعيم»[٣].

وأما السنة فقد ورد فيها قول النبي ﷺ: **«ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»**[٤].

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٢/ ٤٩٠.

(٢) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٢/ ٤٩٠.

(٣) صفوة التفاسير ٣/ ١٨٤.

(٤) رواه الترمذي، ٤/ ٥٩٠، رقم الحديث (٢٣٨٠) وقال حديث حسن صحيح.

لقد أدرك سلف الأمة أثر التوسع والإسراف في المباحات على العبادة، فحذروا منه إذ يقول عمر ـ رضي الله عنه ـ: «إياكم والبطنة في الطعام والشراب! فإنها مفسدة للجسد، مورثة للسقم، مكسلة عن الصلاة؛ وعليكم بالقصد فيهما! فإنه أصلح للجسد، وأبعد من السرف؛ وإن الله ـ تعالى ـ ليبغض الحبر السمين، وإن الرجل لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه»(١).

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ مبيناً أثر المباحات على الفتور في العبادة والانقطاع عنها: «وعقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فشُغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم الطمع فيها إلى أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منها تفويته للأرباح، والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئا من القربات، ولكنه جاهل بالسعر»(٢).

وقد أشار أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ إلى ست آفات من الشبع فقال: «من شبع دخل عليه ست آفات: فقد حلاوة المناجاة، وتعذر حفظ الحكمة، وحرمان الشفقة على الخلق لأنه إذا شبع ظن أن الخلق كلهم شباع، وثقل العبادة، وزيادة الشهوات، وأن سائر

---

(١) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين الشاذلي، ١٥/ ٤٣٣، ورقمه (٤١٧١٣).

(٢) مدارج السالكين ٢٣٩.

المؤمنين يدورون حول المساجد، والشباع يدورون حول المزابل»(١).

أضــرار الإســراف في المباحات على ديــن العبد وعبادته، فمــن أبرز تلك الأضرار:

١ ـ إن الله جعل المســرف أخاً للشــيطان، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإسـراء: ٢٧] والمشــابهة هنا تقتضي الملازمة في الأفعال والأقوال، وقد كان أول ذنب ارتكبه الشــيطان الإعراض عن الله ومعصيته إذا أمره بالسجود لأدم ـ عليه السلام ـ فأستكبر عنها وهذا حال الفاترين.

٢ ـ إن المســرف غير محبوب عند الله ـ تعالى ـ، ومن حُرم من محبة الله حُرم توفيقه، قال ـ عز وجل ـ عن نفســه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٤١].

٣ ـ إن الإسراف في المباحات يؤدي إلى التساهل والترخص في كثير من المعاصي، والوقوع في البطالة وضعف النفس والكسل والإعراض عن الطاعات وعدم التوفيق لها، ويؤكد هذا ما قاله الشاعر:

شَــكَــوْت إِلَــى وَكِـيــع سـوى حفظي ... فــأوصــانـي إِلَــى تــرك الْمــعــاصِي

وَذَاكَ لِأَن حــفــظ الْمــرء فضــل ... وَفــضــل الله لَا يُــعْــطي لــعــاصِي(٢)

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي، ٣/ ٨٧.

(٢) بحثت عن قائله فلم أجد، وهناك من أهل العلممن ينسبه للشافعي وفيه خلاف، وممن نسبه للشافعي الشيخ عبد القادر القرشي، في كتابه الجواهر المضية في طبقات الحنفية، ١/ ٥٤٠.

وذلك أن المباحات والانغماس فيها تُضعف همة العبد ورغبتها في الطاعات والقربات وتقوى عندها إرادة حب المعاصي والشهوات، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذا المعنى: «وهو من أخوفها على العبد ـ أنها تضعف القلب عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود على المعصية، مصرٌ عليها، عازمٌ على مواقعتها متى أمكنه»(١).

فكثرة التمتع بالمباحات، والترف الزائد، والانغماس في النعيم، من الأمور الفتاكة القاضية على همة المؤمن وسقوطها وفتورها في العبادة، قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وقال لي يوما شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ في شيء من المباح: هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطا في النجاة. أو نحو هذا من الكلام. فالعارف يترك كثيرا من المباح إبقاء على صيانته. ولا سيما إذا كان ذلك المباح برزخا بين الحلال والحرام»(٢).

هذا ما لام عليه شيخ الإسلام ابن تيمية تلميذه على شيء من المباح، فكيف لو كان منغمسا فيه مترفلاً في النعيم، لا يمنع نفسه من شهوات النفس ومطالبها.

---

(١) الداء والدواء، ٨٩.

(٢) مدارج السالكين، ٢/٢٨.

السبب الثالث:
عدم الاستجابة للناصحين

لا يخفى على عاقل ما لهذا السبب من أثر على عبادة العبد، فإن العبد إذا فتر عن العبادة، وذكره مذكر ولم يستجب له فإن مآله إلى الضعف والفتور وذلك أن الإيمان إن لم يكن في إزدياد كان مآله إلى الضعف والفتور والانحدار، ولهذا قيل لا خير في قوم لا يتناصحون ولا خير في قوم لا يقبلون النصيحة، وذلك لما للنصيحة من أثر في تقوية إيمان العبد وثباته وتقوية لعزيمته وارداته، وتطلعه لمعالي الأمور.

ولقد بين الله مآل أولئك المتغطرسين المستكبرين عن قبول الحق والإذعان إليه، المعجبين بما هم عليه، فقال سبحانه ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة:٢٠٦] أي: منعه الكبر والغطرسة والأنفة من قبول الناصحين له، مما أورثه جهنم وبئس المهاد، قال الشيخ الصابوني ـ رحمه الله ـ في مناسبة هذه الآية مع ما قبلها من الآيات: «لما ذكر ـ تعالى ـ في الآيات السابقة العبادات التي تُطهرّ القلوب، وتزكّي النفوس كالصيام، والصدقة، والحج، وذكر أن في الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله ـ تبارك وتعالى ـ، أعقبها

بذكر نموذج عن الفريقين: فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن، ثم حذّر ـ تبارك وتعالى ـ من إتباع خطوات الشيطان، وبيَّن لنا عداوته الشديدة»[1].

فالنصيحة لا يمكن الاستغناء عنها، أو الإعراض عنها، فهي صمام الأمان، ومنبع الثبات فإن فُرط فيها ولم يخذ بها حصل الضعف والفتور.

الأمور التي تمنع العبد من الاستجابة للناصحين:

١ ـ أن يكون عارفاً بتقصيره وفتوره ولكن يعتقد أن اعترافه بذلك يستلزم اعترافه بأنه متصف بخصال أهل النفاق.

٢ ـ أن يستطيل فترة فتوره وانغماسه مع أصحاب الهمم الضعيفة في الملذات والمباحات، فيشق عليه ترك ذلك والعودة لطريق الجادة.

٣ ـ الكبر، فقد يفتر الإنسان ويضعف، فينصحه الناصح، فيعرض عنه لأنه يعتقد أنه قبوله للنصيحة يلتزم بأنه ناقص.

٤ ـ الحسد وذلك أنه يرى أن استجابته للناصحين، دليل لهم بما هم عليه من الفضل والعلم والإصابة، فيُعظم في عيون الناس ويسقط هوَ.

---

(١) صفوة التفاسير، ١/١١٨.

السبب الرابع:
العزلة عن الجماعة

الإسلام دين جماعي، لا مكان للعزلة فيه، إلا في بعض الحالات[1]، لكن الأصل الاجتماع والمخالطة، فالصلاة جماعية

(١) وهنا تنبيه مهم: لا يقصد أن العزلة مذمومة في جميع الأحوال، بل ذكر النبي ﷺ أن لها فضلاً فقال: «يأتي على الناس زمان، خير مال الرجل المسلم الغنم، يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن» أخرجه البخاري، ٨/ ١٠٤، رقم الحديث (١٩)؛ ولكن هذا ليس على إطلاقه وإنما في مواطن خاصة ذكرها النبي ﷺ بقوله «حتى إذا رأيت شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك ـ يعني ـ بنفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثل قبض على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله» أخرجه أبو داود في سننه، باب «الأمر والنهي»، ٤/ ١٢٣، رقم الحديث (٤٣٤١)، أو عند الفتن وكثرة الأحزاب والفرق ولم يكن للمسلمين إمام كما في حديث حذيفة ـ رضي الله عنه ـ يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم» قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن» قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر» قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها» قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: «هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا» قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» أخرجه البخاري، ٤/ ١٩٩، رقم الحديث (٣٦٠٦) وكذلك ينبغي التنبيه على أمر مهم يقع فيه كثير من المربين وهو التربية على العمل الجماعي فقط، فلا يعمل العبد إلا مع محيط إخوانه، فإذا لم يجد من يُعينه، ترك العمل، وهذا ملاحظ في حال الفاترين بعد رمضان، فيكون العبد في شهر رمضان مجتهدا في صلاته وصيامه وذكره ودعائه وسائر أعماله هو وإخوانه، فإذا انقطعوا انقطع، فلا بد للنفس من تربية خاصة على العبادات الفردية، حتى إذا لم يجد من يُعينه عليها لم يفتر عنها.

والزكاة تعبر عن تكافل إجتماعي في المجتمع المسلم والصيام والحج ونحوها من العبادات وذلك تطيباً للنفوس ودفعاً للمشقة إذا نظر إلى من حوله من السالكين المتعبدين لله بما شرع.

ولقد جاءت الآيات والأحاديث في ذم العزلة والنهي عنها لما يترتب عليها من ضرر على دين العبد وصلاحه، لذا قال تعالى ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أي: «بكتابه وسنة نبيه ﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠١] ثم كرر ـ تعالى ـ نداءه لهم بعنوان الإيمان تأكيداً لهم به وأمرهم بأن يبذلوا وسعهم في تقوى الله ـ عز وجل ـ وذلك بطاعته كامل الطاعة بامتثال أمره واجتناب نهيه حاضاً لهم على الثبات على دين الله حتى يموتوا عليه فلا يبدلوا ولا يغيروا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢] وأمرهم بالتمسك بالإسلام عقيدة وشريعة، ونهاهم عن التفرق والاختلاف وأرشدهم إلى ذكر نعمته تعالى عليهم بالألفة»(١).

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية»**(٢).

---

(١) أيسر التفاسير ١/ ٣٥٤.

(٢) سنن أبي داود، ١/ ١٥٠، رقم الحديث (٥٤٧)، قال الألباني حديث حسن، ١/ ١٦٢.

يعني أن الانفراد أو الشذوذ عن الجماعة هو من استحواذ الشيطان على الإنســـان، ومن عمل الشـــيطان، ومن كيد الشيطان ومن مكر الشـــيطان بالإنسان، فكما أن الذئب يأكل القاصية المنفردة عن الغنم فكذلك الشيطان يستولي أو يستحوذ على من يشذ وينفرد عن الناس ولا يصلي مع الناس.

وما حذر الإســـلام من العزلة إلا لأنها شـــر عظيم وخطر جيسم على ســـلوك العبد وتخبطه بين فترة وفترة، وذلك أن الإنســـان إذا أعتزل الجماعة حرم نفسه من النصح والتوجيه والإرشاد.

«فالإنسان بالجماعة قوي النفس نشـــيط العبادة فيكون معهم في الصلاة والصيام ومواجهة الشـــهوات والمعاصي أقدر، وتكون ثقته بنفســـه أكبر في مواجهة العقبات، فالجماعـــة قوة والعزلة ضعف، والإنسان في طريقه لوحده وانعزاله عن المجتمع ربما يتعرض لبعض العقبات وتهفو نفسه لبعض المعاصي ويضعف فيتسلط عليه الشيطان وتخور قواه ويدركه الملل والسأم فينقطع عن الطريق. فالمسلم بحاجة إلى من يذكره وينصحـــه ويقومه ويعينه ويثبته حتى يواصل الطريق إلى الجنة»[١].

فعلـــى العبد المؤمن أن لا ينزلق في هذا المنحدر الخطير، حتى لا يصبح فريسة سهلة للشيطان ونزاغاته.

---

(١) التدابير الواقية من انتكاسة المسلم، ٤٣.

مظاهر الفتور في العبادة

للفتــور في العبــادة علامات واضحه تدل علــى ضعف النفس وتقصيرهــا، وإهمالها للواجبات والســنن، وإعراضها على أهلها الذين يذكرونه بالعبادات وفضلها وعظم الثبات عليها.

تعريف المظاهر:

المظاهر لغة: «ظهر» قال ابن فارس «(ظَهَرَ) الظَّاءُ وَالْهَاءُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى قُوَّة وَبُرُوز. مِنْ ذَلِكَ: ظَهَرَ الشَّـيْءُ يَظْهَرُ ظُهُورًا فَهُوَ ظَاهِرٌ، إِذَا انْكَشَفَ وَبَرَزَ»[١].

وقال الرازي: و«(الظاهر) ضد الباطن. و(ظهر) الشيء تبين»[٢].

وعليــه فــإن معنى اللغــوي للمظاهر يدل على البــروز والقوة والانكشاف والوضوح والبيان.

أما فــي الاصطلاح فلا يخرج عن معنــاه اللغوي وهو «خلاف الباطن»[٣] والمراد من ذلك الصورة التي يبدو عليها الشيء.

وبناءً على ما ســبق يمكن تعريف مظاهر الفتور في العبادة بأنها: هي تلك العلامات البينة والواضحة الدالة على ضعف العبد وانقطاعه عن الله.

---

(١) مقاييس اللغة، ٣/ ٤٧١، مادة «ظهر».

(٢) مختار الصحاح، ١٩٧، مادة «ظهر».

(٣) انظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلم، لنشوان الحميري، ٧/ ٤٢٥٦.

وهي مرحلة تتبع الأسباب المؤدية للفتور في العبادة، فكلما قويت تلك الأسباب بانت تلك المظاهر على عبادة المسلم ويمكن من خلالها أن نتعــرف على فتور العبد وضعفــه و انقطاعه وإعراضه عن الله، وهذه المظاهر قد تتفاوت من حيث خطورتها وقوة أثرها على عبادة العبد واستقامته.

وإن المتأمل فــي ظاهر الفاترين المتفلتين مــن العبادة، المنقطعين عنهــا، ليجد تلــك العلامات أو بعضها بــارزة عليهم واضحة في ســلوكهم في مختلف شــؤون الحياة. وإني أكتب هذه المظاهر عن مشــاهدة وملاحظة للفاترين الوالغين في الضعف والسكون، نسأل الله السلامة والعافية وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة.

المطلب الأول:
مظاهر فتور العلاقة بين العبد وربه

تمر على كل عبد مؤمن في حياته ساعات إقبال على الله وقربٌ منه وساعات إدبار يستسلم لهواه وينقاد للشيطان ويبتعد بها عن مولاه والتلذذ بمناجاته والخضوع إليه والأنس به، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن لكل شيء شرة، ولكل شرة فترة، فإن صاحبها سدد وقارب؛ فارجوه، وإن أشير إليه بالأصابع؛ فلا تعدوه»**[١].

وقال ﷺ: **«تلك ضراوة الإسلام وشرته، ولكل ضراوة شرة، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى اقتصاد وسنة فقد اهتدى، ومن كانت فترته إلى المعاصي، فذلك الهالك»**[٢].

فالشرة هي النشاط والجد والاجتهاد والقرب من الله والخضوع إليه والتذلل له، والفترة هي الكسل والبعد عن الله وعن تحقيق العبودية الخالصة له.

ففتور العلاقة بين العبد وبين ربه أساس كل مصيبة وسبب لكل نقص وبلية، ودليل على بُعد العبد عن ربه، وإعراضه عنه، مدبراً

---

(١) سنن الترمذي، ٤/٢١٦، رقم الحديث (٢٤٥٣) وقال «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه».

(٢) سبق تخريجه.

عن العبادات ومقبلاً على المحرمات وهذا مظهر ومسلك خطير قد يودي إلى الهلاك والانتكاسة والعياذ بالله، وقد ثبت عن ﷺ أنه قال: «ومن كانت فترته إلى المعاصي، فذلك الهالك»[١].

ففتور العلاقة بين العبد وربه وضعفها والإعراض عنه والاستهانة بطاعته والتكاسل في أدائها، وعدم إدراك ذلك وعلاجه، قد يتحول إلى ما هو أشد من ذلك، فقد يصل الفتور للقلب فيفسد عليه معظم حواسه الإيمانية كما قال تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [النحل: ١٠٨] أي: «أولئك الذين طبع الله على قلوبهم فلا يدركون الحق حقا، وسمعهم فلا يسمعون الحق سماع قبول، وأبصارهم فلا يبصرون الآيات نظر الاعتبار وأولئك هم الغافلون... حيث ضيعوا أعمارهم وصرفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلد ولم يكتسبوا شيئا ينجيهم من العذاب ويفضى بهم إلى الفلاح»[٢].

فهؤلاء هم الذين طبع الله على قلوبهم، فصارت لا تقبل الحق ولا تنقاد إليه، وعلى أسماعهم كذلك فلم يعودوا يسمعون سماع فهم وتدبر واتعاظ، كأنهم صم بكم، وعلى أبصارهم غشاوة فلا ترى ما في الكون أمامهم من عبر ودلالات ومواقف، وأولئك هم الغارقون في الغفلة عن الحق والعمل به، فلا خير فيهم إلا إذا أزالوا

(١) سبق تخريجه.

(٢) التفسير المظهري ٥/ ٣٨٢

الغفلة من عقولهم وقلوبهم.

فالبُعد عـــن الله و الإعراض عنه، والانخداع بزخارف الدنيا من مآكل ومشـــرب ومركب وزينه، والإنصراف عن مراد الله من تحقيق العبودية لـــه، قال تعالـــى ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [يونس: ٧]. أي: «متنافســـون في زين الدنيا وزخارفهـــا، راضون بها عوضا عن الآخرة»[١] ولا يشـــعرون بأنهم يعيشـــون في عقوبة البُعد عن الله؛ لأن الغفلة وحب الدنيا والركون إليها أفقدهم ذلك الشعور بالبُعد عن الله وذهاب حلاوة الإيمان من قلوبهم.

المظاهر الدالة على فتور العلاقة بين العبد وربه:

---

(١) جامع البيان، ١٥/ ٢٥.

المظهر الأول:
قسوة القلب وإعراضه عن الله

إن الناظر والمتأمل في حال الفاترين، وفي أحوالهم يجد قسوة القلوب وغلظتها من السمات الظاهرة عليهم، وهذا المظهر من أبرز المظاهر التي تصيب الفاترين وهو مظهر خطير ولا يسلم من ذلك إلا من سلمه الله، فعرف أسباب ذلك، وأبتعد عنها وعرف العلاج وأخذ به.

فالقلب يمرض كما يمرض البدن، ويصدأ كما تصدأ المرآة، ويجوع كما يجوع البطن، وكلما قويت الأسباب الداعية للفتور في العبادة قوي المرض واشتد حتى يغلف ويُطمس ويطبع عليه، ويزيغ عن الحق، وعندها تكون حالة موت القلب التي هي أسوأ الحالات؛ لأنها تنقل صاحبها من الإيمان إلى ضده، وتجعله معرضاً عن الله فلا يتأثر بآيات الوعد والوعيد، ولا تغير فيه الآيات الكونية والعبر التي تمر به، فإذا قسا القلب وأظلم فسد حال العبد وخلت عبادته من الخشوع والخضوع وغلب عليه الكسل والفتور وحُرم لذة مناجاة الله.

وقد وردت النصوص الشرعية وأقوال السلف الصالح في ذم قسوة القلب التي ظهرت في الأمم السابقة كاليهود وغيرهم، فمن تلك النصوص:

ـ قال تعالى ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤].

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «القسوة: الصلابة والشدة واليبس وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله ـ تعالى ـ»(١).

ـ وقال تعالى ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٣].

ـ وقوله ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد: ١٦]. أي «صلبت بحيث لا تنفعل للخير والطاعة والغرض أن الله يحذِّر المؤمنين أن يكونوا مع القرآن كاليهود والنصارى حين قست قلوبهم لما طال عليهم الزمان»(٢).

ـ وعن ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي**»(٣). أي: أن كثرة الكلام من دون فائدة مدعاة للهلاك، لأنها حتما ستجر إلى الكلام المحرم، والشيطان حريص على إخراج العبد من دائرة المباح إلى دائرة الحرام، و عن مالك بن دينار ـ رحمه الله ـ، أنه قال: «إن لله عقوبات في القلوب

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١/ ٤٦٢.

(٢) صفوة التفاسير ٣/٣٠٨.

(٣) سنن الترمذي، ٤/٦٠٧، رقم الحديث (٢٤١١) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم بن عبد الله بن حاطب.

والأبدان: ضنك في المعيشة، ووهن في العبادة، وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب»(١) وعن عبد الله الداري ـ رحمه الله ـ كان يقول: «كان أهل العلم بالله والقبول منه يقولون: إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن وإن الرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن وإن الشبع يقسي القلب ويفتر البدن»(٢).

فالقلب كلما قسا ابتعد عن الله وهذه عقوبة من الله لبعده عنه وانشغاله بشهواته وملذاته، قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ مبينا حال قلوب المنقطعين عن الله: «ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله وما خلقت النار إلا لإذابة القلوب القاسية وأبعد القلوب من الله القلب القاسي لأنه إذا قسي القلب قحطت العين وقسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة الأكل والنوم والكلام والمخالطة كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنفع فيه المواعظ ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته لأن القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها القلوب»(٣).

فالقلب القاسي لا يلين للأذان ولا للإقامة، ولا لسماع تلاوة القرآن وعظاته، بل ربما زاد القلب ظلمة فيصاب ببغض ما يحبه

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٦/ ٢٨٧.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٦/ ٢٨٨.

(٣) الفوائد، ١/ ٩٧.

الله، ويكره الاستقامة على أمر الله، حتى يهلك العبد؛ لأن القلب القاسـي لا يعرف ختم القرآن إلا من رمضان إلى رمضان، وكذلك حاله مـع النوافل والفرائض، فالصلاة أصبحت مجرد حركات من قيام وقعود! وتخلف عن تكبيرات الإحرام ورضاً بالصفوف الأخيرة؛ وما ذلك إلا لقسوة القلوب فعاقبها الله بالبعد عنه.

فقسوة القلب وانسلاخها من طاعة الله، والخضوع إليه، والتذلل إليه عقوبة من الله لمن اسـتبدل حياة العبودية بحياة الكسل والركون إلى الدنيا والتلذذ بها بعيداً عن مراد الله.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

الله مـا خـوفـي الـذنـوب فـإنـهـا
لـعـلـى طـريـق الـعـفـو والـغـفـران
لـكـنـمـا أخـشـى انـسـلاخ الـقـلـب مـن
تحـكـيـم هـذا الـوحـي والـقـرآن[1]

* أعراض قسوة القلب الدالة على فتور العبد:

ـ الفتور العام في العبادات، وقد ذكر ابن القيم ـ رحمه الله ـ شدة الفتور في العبادات عند إقتارنها بقسوة القلب فقال مبيناً حالهم: «فالعبد محتاج إلى الصبر عليها ـ أي العبودية لله ـ لأن النفس بطبعها تنفر عن كثير من العبودية أما في الصلاة فلما في طبعها من الكسل وإيثار الراحة ولا سـيما إذا اتفق مع ذلك قسوة القلب ورين الذنب والميل

(١) نونية ابن القيم، ٣٥٥.

إلى الشـــهوات ومخالطة أهل الغفلـــة فلا يكاد العبد مع هذه الأمور وغيرها أن يفعلها وان فعلها مع ذلك كان متكلفا غائب القلب ذاهلاً عنها طالبا لفراقها كالجالس إلى الجيفة»(١).

ـ عدم التأثر بآيات الله وعظاته، فلا يؤثر فيه ما يسمعه من آيات الجنة والنار والموت والنشـــور والوقوف بين يديه ـ ســـبحانه ـ، قال تعالـــى ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝﴾ [الحج: ٣٥] فحال المؤمنين المقيمي الصلاة المؤدين للزكاة لينة قلوبهم، بخلاف الفاترين المتثاقلين فقلوبهم قاسية لا تتأثر ولا تخشع لآيات الله وزواجره.

ـ إثار الدنيا، والركون إليها، وتعظيمها في القلب، وضعف محبة الله وتعظيمه وتوقيره ومراقبته ـ ســـبحانه ـ في الخلوات والسكنات والخطرات.

ـ الغفلة، فالقلب القاســـي الغافل بعيداً عن الله، مستأثراً لذات جوارحه على عبادة ربه والخضوع إليه ، قال تعالى﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ۝﴾ [النحل: ١٠٨].

فخلاصة ذلك: أن العبد كلما ابتعد عن الله قســـا قلبه، فلا يرق ولا يلـــين ولا ينتفع بآيات الله ومواعظـــه، وذلك عقوبة من الله لما أستأثرو به لأنفسهم من حب الكسل والركون إلى الدنيا.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، ٦٥.

المظهر الثاني :
الاستهانة بالطاعات

إن أبرز مظاهر الفتور في العبادة، الاستهانة بالطاعات و التكاسل عنهـــا والتثاقل في أدائها، والانقطاع عنها مثل تلاوة القرآن أو قيام الليـــل أو الذكر أو الدعاء أو التأخر في حضـــور الجماعة من دون عـــذر، أو التثاقل عن صيام الاثنين والخميـــس والعمرة إلى العمرة ونحوها من العبادات، قال ـ تعالى ـ واصفاً كسلهم وتثاقلها ومبيناً حالهـــم ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النســاء: ١٤٢] قـــال العلامة ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها، وقوله ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ هذه صفة ظواهرهم»[1].

وقد لا يأتون المساجد ولا يقومون من مجالس اللهو واللعب إلا عنـــد إقامة الصلاة مثلاً، فتفوتهم تكبيـــرة الإحرام ، وقد يَدخلون إليها مشوشـــي الفكر، لم يلتزموا بأدب الإســـلام في دخول بيوت الله، ولم يأخذوا بســـنة النبي ﷺ في التزام السكينة والوقار، فإذا

(١) تفسير ابن كثير ، ٢/ ٤٣٨.

انقضت الصلاة سارعَوا في الخروج من المسجد من دون الأدعية والأذكار الواردة بعد الصلاة، فهذا حالهم يزهدون في فضائل الأعمال وأجلها لحظوظ النفس وشهواتها.

فالسكون والدعة من سمات الفاترين المعرضين ولهذا عاتب الله المؤمنين على كسلهم وتثاقلهم وإثارهم للدنيا على ما عند الله فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨] أي «تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار»[(١)] وهذا الكسل يختلف ضعفاً وقوة من شخص للآخر، فالسعيد من تدارك ضعفه، والتعيس من رضي بالركون إلى الدنيا وشهواتها، وقد كان النبي ﷺ يتعوذ من الاتصاف بصفات الفاترين المتكاسلين عن العبادات، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن النبي ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم**»[(٢)] قال النووي ـ رحمه الله ـ: «وأما الكسل فهو عدم انبعاث النفس للخير وقلة الرغبة مع إمكانه»[(٣)].

فالكسل داء فتاك، يفتك بدين العبد وعبادته، وذلك لتثبيط الشيطان له وتزين عمله ولذيذ شهوته، وقد أشار إلى ذلك النبي

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير، لمحمد الصابوني، ٢/ ١٤٣.

(٢) متفق عليه، البخاري، ٨/ ٧٩، رقم الحديث (٦٣٧٥) ومسلم، ٤/ ٢٠٧٨، رقم الحديث (٥٨٩).

(٣) المنهاج شرح صحيح مسلم، ١٧/ ٢٨.

ﷺ فعـــن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، أن النبي ﷺ قال: «**يعقد الشــيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد إذا نام، بكل عقدة يضرب عليك ليلا طويلا، فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، وإذا توضأ انحلت عنه عقدتان، فإذا صلى انحلت العقد، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كســلان**»[1] قال النووي ـ رحمه الله ـ: مبيناً معنى قوله ﷺ «**خبيث النفس كسلان**» «معناه لما عليه من عقد الشيطان وآثار تثبيطه واستيلائه عليه»[2].

فالحاصل أن الكسل داء خطير وسبب للخذلان إذا لازم العبد في كل أحوالــه، لأن ذلك قد يؤدي به إلى ضعف الإيمان والخور في الطاعات ويتطور به إلى الانتكاسة والعياذ بالله.

---

(١) متفــق عليــه، البخاري، ٢/ ٥٢، رقم الحديث (١١٤٢) ومســلم، / ٥٣٨، رقم الحديث (٧٧٦) واللفظ لمسلم.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم، ٦/ ٦٧.

المظهر الثالث:
مقارفة الذنوب وعدم إنكارها

إن القلب إذا فتر وأنقطع عن عبادته ربه، ظهر عليه التساهل بالذنوب والمعاصي وسهل إقتارفها وشق عليه إنكارها، وهذا من حرمان الله له إذا أبتعد عن الله وعن مراقبته، فالعبد كلما أبتعد عن الله استهان بالذنوب وكلما استهان بها أكثر منها وأصر عليها، واشتاق لها كلما فارقها، ولم يعد يحاسب نفسه على فعلها، وقل إنكاره لها.

والاستهانة بالذنوب والمعاصي وعدم إنكارها، دليل على هلاك العبد وخذلانه، فعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن محقرات الذنوب متى يأخذ بها صاحبها تهلكه**»[1].

فاستهانة العبد بالمعاصي ولو كانت صغيرة علامة على استهانته بالله وضعف خوفه منه، والتلذذ فيها دون استحياء من الله دليل على انقطاعه عن الله، كإطلاق البصر في الحرام والكذب والغيبة والنميمة والاستهانة بنظر الله له فالخلوات، خصوصاً ما يتعلق

---

(١) المعجم الكبير، ٦/ ١٦٥، رقم الحديث (٥٨٧٢). و صححه الألباني، في الترغيب والترهيب.

بصغائر الذنوب؛ لان العبد لا يفطن لها حتى يسودَ قلبه، ويسقط من عين الله، فالاستهانة بالمعصية تورث الذل، وتفسد العقل، وتورث الهم، وتضعف الجوارح، وتعمي البصيرة، وأعظم من ذلك كله تأثيرها على القلب، فقد أخرج الإمام مسلم عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ، قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل، قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأسكت القوم، فقلت: أنا، قال: أنت لله أبوك قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها، نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيضٍ مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز، مجخيا لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه**»(١)

قال النووي ـ رحمه الله ـ في بيان قوله «**فأي قلب أشربها**» أي: «دخلت عليه دخولاً تاماً وألزمها وحلت منه محل الشراب. . . ومعنى قوله «**كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا**» أي «كالإناء الذي لا يثبت الماء فيه»(٢).

---

(١) صحيح مسلم، باب «بدأ الإسلام غريبا»، ١/١٢٨، رقم الحديث (١٤٤).

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم، ٢/ ١٧١.

ولهذا استعظم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الاستهانة بالذنوب والمعاصي، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ، قال: «إنكم لتعملون أعمالا، هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي ﷺ من الموبقات»[١].

فالاستهانة بالذنوب والمعاصي من شأن الفاترين ومن أبرز سماتهم ومظاهرهم، ولهذا يُعاب على من يدعي قوة إيمانه ورغبته بما عند الله وهو يقترف المعاصي مستهيناً بها، ولهذا قيل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمري في القياس بديع
لو كنت تظهر حبه لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع[٢]

فالذنب يتبع الذنب حتى يعتاد العبد عليه، وحينها لا يفرق بين فعل محرم أو ترك واجب، وهنا يظهر خطر هذا المظهر؛ وذلك أن العبد إن لم يلحظ تقصيره في الواجبات وكسله في الصلوات أو إهماله للسنن والواجبات أو لم يلحظ تساهلاً بالنظر إلى المحرمات أو في مشاهدة القنوات أو إطالة النظر إلى العورات، دل ذلك على كسله وفتوره العام، ويعظم وذلك إذا أقترن بها قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف من الله مما يجعلها من الكبائر، فإن استمراء ذلك ولم يبادر في علاجه سقط في مكائد الشيطان ونزغاته.

(١) أخرجه البخاري، «باب ما يتقى من محقرات الذنوب»، ٨/١٠٣، رقم الحديث (٤٦٩٢).
(٢) سبق بيانه.

المطلب الثاني:
فتور العلاقة بين المسلم وإخوانه

لقد ميز الله عباده المؤمنين بصفات ينفردون بها عن غيرهم، ومنها الأخوة في الدين والحرص عليها، وجعل لذلك وسائل عديدة، حتى تتحقق هذه الغاية النبيلة، ومن تأمل في علاقات الصحابة - رضي الله عنهم - وأحوالهم ونظر في صدق إخوتهم في الدين وقارن بها حال المسلمين في هذا العصر يجد الفرق واضحاً في أخلاقهم وسلوكهم وعبادتهم، ولهذا أصيب المسلمون وأهل الإيمان بالفتور الشديد في العلاقة، مما يدل على ضعف الإيمان ونقصه، حتى بآن الفتور بين الأخ وأخيه والتلميذ وشيخه، وفقدت الأخوة الإيمانية القائمة على الكتاب والسنة وتلاشت، ولهذا كان من سمات الفاترين الاستهانة بالأخوة الإيمانية، فمن لم يقم للأخوة الإيمانية وزناً ولا قيمة و لا يحرص على بقائها وثباتها، ولا يهمه شأنها قويت أم بقيت، كان ذالك دلالة على فتوره ونقص إيمانه، فقد أخرج البخاري عن أنس بن مالك - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في

الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[1].

فحـــب المرء لإخوانه، دليل على صدق إيمانه وقوته وضعف هذه المحبـــة علامة على ضعف إيمانه وفتوره؛ إذ أن الدافع والمحرك لهذه الإخوة هو الإيمان الصادق القوي.

ولفتور العلاقة بين المســـلم وإخوانه مظاهر وعلامات يتجلى من خلالها هذا الفتور، فمنها:

(١) سبق تخريجه.

المظهر الأول:
عدم حضور مجالس العلم والعلماء

الزهد في الصالحين وفي مجالسهم، من السمات الدالة على أهل الفتور، إذا أنهم يتثاقلون الحضور إلى تلك المجالس الجدية ويخشون من عتاب بعضهم لبعض عند تقصيرهم وفتورهم في العبادات.

فمن ضعفت همته، هجر تلك المجالس وما فيها من مدارسة ومذاكرة لآيات الله عظاته، إذا هي المحرك للقلوب، وبها يلتقي المؤمن بإخوانه الناصحين، فيجد من يعاتبه لتقصيره وانقطاعه؛ إذ أن العتاب من المحب للمحبوب يفتح القلوب للخير، والأفئدة للصواب، والعقول للحق دون تردد أو خمول أو تباطؤ في فعله، وعكسه كذلك فإن النفور من مجالسة طلبة العلم ومخالطتهم يدل على ضعف القلب وفتور الإيمان ونقصه؛ وذلك أن الفاتر لا يرغب في إصلاح ما فسد من قلبه ولا في الثبات على ما بقي من إيمانه فكان آمره في انحدر وضعف مستمر.

فإذا كان المسلم مصاحباً لأهل الخير والصلاح، حريصاً على مجالسهم ومنتفعاً بها لزاد إيمانه لما يسمعه منهم من آيات وعظات ونصح وتذكير وتوجيه وإرشاد، قال ـ تعالى ـ مبيناً حال تلك المجالس وأثرها في زيادة الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ

وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]. أي: «إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان الذين إذا ذكر الله وجلت وخافت وفزعت قلوبهم استعظاما وتهيبا من جلاله وعزة سلطانه وقيل هو الرجل يهم بالمعصية فيقال له اتق فينزع منه خوفا من عقابه»(١).

وقال العلامة السعدي ـ رحمه الله ـ: في قوله تعالى ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ «ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقا إلى كرامة ربهم، أو وجلا من العقوبات، وازدجارا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان»(٢).

ثم بين الله ـ عز وجل ـ مالهم من درجات حسب علو هممهم وأعمالهم، ومدى محافظتهم على العبادات فقال ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٣ ـ ٤].

(١) التفسير المظهري، ٤/ ٩ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٣١٥.

فالزهد في حلق الذكر ومجالس العلم وما فيها من رؤية للصالحين والنفور منها ومن مجالسة أهلها، دليل على الزهد بما هم عليه من عبادة الله وطاعته.

يقول إبراهيم الخواص ـ رحمه الله ـ: «دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع عند السحر، ومجالسة الصالحين»(١).

وذلك أن مجالستهم تحي القلب وترغبه في فعل الطاعات والقربات وتزهده في المعاصي والآثام قال تعالى ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥] فالذكرى والعتاب لا تنفع إلا المؤمنين الصادقين المقبلين الذين يسعون لصلاح قلوبهم وأعمالهم.

ولهذا بين الله ـ عز وجل ـ شأن الفاترين المقبلين على الدنيا والمنقطعين عن الله والدار الآخرة وحذر عبادة المؤمنين من الابتعاد عن مجالسهم، فقال ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨].

قال ابن القيم: «والمقصود أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ نهي عن طاعة من جمع هذه الصفات. فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه. فإن وجده كذلك فليبعد منه وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله ـ عز وجل ـ وإتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه،

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ١٠/ ٣٢٧.

بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه»[١].

أما النفس المقصرة الفاترة فإنها تستوحش من العتاب والذكر وما فيه حياة للقلوب والأبدان وصلاح للجوارح والأركان وما فيه من تزكية للنفوس، وما فيه من قرب للطاعات وابتعادٍ عن المعاصي والآثام، ومما يدل على ذلك ما جاء في الصحيحين، فعن أبي واقد الليثي ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل نفر ثلاثة، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحد، قال فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: **«ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله، فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه»**[٢].

لكن المؤمن المحافظ على إيمانه حينما يرى إخوانه الصالحين يزداد همة ونشاطاً للعمل والاجتهاد فيه، لذا فقد كان النبي ﷺ وهو أتقى الناس وأقربهم لله ـ تبارك وتعالى ـ يزداد طاعة وهمة، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال «كان رسول ﷺ أجود الناس، وكأن أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ حين

(١) تفسير القرآن الكريم ١/ ٣٦٦.

(٢) متفق عليه، البخاري ١/ ٢٤، رقم الحديث (٦٦) ومسلم، ٤/ ١٧١٣، رقم الحديث (٢١٧٦).

يلقاه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة»[١] قال النووي ـ رحمه الله ـ عند ذكره لفوائد هذا الحديث «ومنها زيادة الجود والخير عند ملاقاة الصالحين وعقب فراقهم للتأثر بلقائهم»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري، ١/٨ ، رقم الحديث (٦) ومسلم، ٤/١٨٠٣، رقم الحديث (٢٣٠٨) واللفظ للبخاري.

(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم، ١٥/٦٩.

المظهر الثاني:
التراخي عن حضور جماعة المسجد

لقد اهتم الإسلام اهتماماً بالغاً في حضور الجماعة، وحذر من التهاون بها، وشرع لها اجتماعاً في مكان معين، يجتمع فيه المسلمون كل يوم خمس مرات في الصلوات المفروضة، وكل أسبوع في صلاة الجمعة وفي كل سنة اجتماعين لأهل البلد في صلاة العيدين، وما هذا الاجتماع إلا لتقوية الروابط الإيمانية بينهم، لأن العبد كلما أبتعد عن الصالحين كلما ضعف واستكان، ولهذا كان من شأن الفاتر نفوره من إخوانه، وزهده في حضور جماعتهم في المساجد ونفوره عن لقائهم واجتماعهم، إذا يخشى من السؤال عن فقدانه أو عن عدم محافظته على النوافل والسنن الرواتب، فيُحرج عند سؤالهم، ويخشى مواجهة الاعتراف بتقصيره وفتوره، فيتعذر بالأعذار الواهية ويختلق الأكاذيب لينصرف عن جماعة المسجد، فإذا عُوتب عن تخلفه عن صلاة الفجر مثلاً أختلق الأكاذيب بأنه يصلي في مسجدٍ آخر بعيداً عن أنظارهم حتى يؤهم جماعة المسجد ويصرفهم عن عتابهم له، وسؤالهم عنه، فعن أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ، قال: صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «أشاهد فلان؟». قالوا: لا، فقال: «أشاهد

فلان؟» فقالوا: لا، لنفر من المنافقين لم يشهدوا الصلاة، فقال: «**إن هاتين الصلاتين أثقل الصلاة على المنافقين، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا**»[1].

ولقد دلت النصوص الشرعية على النفور بين المتحابين عند الاستهانة بحضور الجماعة، فعن أبي مسعود ـ رضي الله عنه ـ، قال: كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: «**استووا، ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم، ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» قال أبو مسعود: «فأنتم اليوم أشد اختلافا»[2].

وذلك أن إقامة الصلاة بسننها وأركانها و واجبتها وإلصاق المناكب بالمناكب والأقدام بالأقدام يؤدي إلى اجتماع القلوب وتألفها والتهاون في شأنها يودي إلى تنافر القلوب من بعضها وتفرقها.

ولما يترتب على إقامة صلاة الجماعة من تقوية لروابط الأخوة الإيمانية وما يلزمها من نصح وتوجيه وتذكير ،كما جاء في الحديث الذي حسنه الألباني «**المؤمن مرآة المؤمن، والمؤمن أخو المؤمن**»[3].

فالفاتر يخشى من هذه المرآة أن تكشف له عيوبه وتقصيره وفتوره، أما المؤمن الحريص على إيمانه الذي يخشى من ضعفه وتقصيره، فإنه هو من يطلب من إخوانه العتاب والنصح والتوجيه، فها هو

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى من السنن الصغرى ٢/ ١٠٤، رقم الحديث (٨٤٣). وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، باب «تسوية الصفوف»، ١/ ٣٢٣، رقم الحديث (٤٢٣).

(٣) سنن أبي داود باب «النصيحة»، ٤/ ٢٨٠، رقم الحديث (٤٩١٨) قال الألباني «حديث حسن».

الخليفة الراشـــد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يسأل عن عيوبه وهو العابد يسأل حذيفة ـ رضي الله عنه ـ فيقول هل عدني رسول الله ﷺ مـــن المنافقين؟[1] وهو الذي طُعن وهـــو يصلي الفجر مع جماعة المســـلمين ثم يغمى عليه ثم يفيق ثم يغمى عليه حتى تنتهي الصلاة، فيقول: لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة[2].

فشـــتان بين المؤمن الصادق الذي يبحث عن عيوبه ليصلحها وبين من يفر منها ويخشى مواجهتها والاعتراف بها، ولا يسعى لتزكيتها، ولا ســـيما وهو محتاج لها مع انفتاح الدنيا وكثرة مشـــاغلها، وقد امتدح الله ـ تعالى ـ من ســـعى في تزكية نفسه ووبخ من لم يزكها ويطهرها من شؤائب النفس وأدرانها فقال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشـــمس: ٩ ـ ١٠] وقـــال ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأعلـى: ١٤ ـ ١٥] فـــزكاة النفس بذكر الله وإقامة الصلاة من شأن الصالحين، والتراخي عن حضور الجماعة من شأن المتكاسلين الفاترين، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول

(١) و أصله عند ابن شيبة في المصنف، ٧/ ٤٨١، رقم الحديث (٣٧٣٩٠)، عن زيد بن وهب، قال: مـــات رجل من المنافقين فلم يصل عليه حذيفة، فقال له عمـــر: أمن القوم هو؟ قال: «نعم»، فقال له عمر: بالله، منهم أنا؟ قال: «لا ، ولن أخبر به أحدا بعدك».

(٢) وأصـــل هذا الحديث عن المســـور بن مخرمة، قال: جـــاء ابن عباس إلى عمر ـ رضي الله عنهما ـ حين طعن، فقال: الصلاة يا أمير المؤمنين فقال عمر: «إنه لا حظ في الإســـلام لأحد أضاع الصلاة»، فصلـــى عمر وجرحه يثعب دما. اخرجه الدارقطني في ســـننه، ٢/ ٣٩٥، رقم الحديث (١٧٥٠) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد رجاله رجال الصحيح ، ١/ ٢٩٥، رقم الحديث (١٦٣٦) بلفظ «لا حق في الإسلام لمن ترك الصلاة».

الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب كل عقدة عليك ليل طويل، فارقد فإن استيقظ فذكر الله، انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[١].

والواقع يشهد بذالك، حيث إن العبد المؤمن المحافظ على صلاة الجماعة أكثر إقبالاً على العبادات بخلاف المتهاون في شأنها والمبتعد عن أهلها، فإنه خبيث النفس كسلان.

(١) سبق تخريجه.

المظهر الثالث:
التخلي عن رفقاء الخير

ومن مظاهر فتور العلاقة بين المسلم وإخوانه، مخالطة رفقاء السوء والأنس بمجالسهم، وهجر رفقاء الخير، الذين يُذكرونه بالله وبعبادته حتى ولم يتكلموا، فعن ابن عباس، - رضي الله عنهما -، قال: قال رجل: يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال: «**الذين إذا رؤوا ذُكر الله**»[١].

فرؤية رفقاء الخير تُذكر العبد في الله والبُعد عنهم والاقتراب من رفقاء السؤء يقرب العبد من المعاصي والآثام، فعن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «**ما تواد اثنان في الله جل وعز أو في الإسلام، فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما**»[٢].

فالفاتر يهجر إخوانه ورفقاء الخير الذين يذكرونه بالطاعات بمجرد رؤيتهم، فكيف بنصحهم وتوجيههم، فإذا فتر وتكاسل شق عليه لقائهم وسهل عليه هجرانهم، بل قد يصل إلى التهرب والصدود عنهم والوحشة منهم وإن لقيهم قد يكون ذلك مجاملة أو اضطرارا

(١) مسند البزار، ١١/٢٥١، رقم الحديث (٥٠٣٤). وحسنة الألباني في صحيح الجامع.

(٢) الأدب المفرد، للبخاري، ١٤٥، رقم الحديث (٤٠١) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد.

ومن ثم يستبدلهم بمصاحبة غيرهم لموافقة هواه لهواهم، لأن النفس مجبولة على مصاحبة من يشابهها نافرة ممن يخالفها يقول الغزالي: «لا يتفق اثنان في عشـــرة إلا وفي أحدهما وصف من الآخر حتى الطير ورأى بعضهم مرة غرابا مع حمامة فاســتبعد المناسبة بينهما ثم تأمل فوجدهما أعرجين فإذا أردت أن تعرف من غابت عنك خلاله بموت أو غيبة أو عدم عشـــرة امتحن أخلاق صاحبه وجليسه بذلك وذلك يدل على كماله أو نقصه كما يدل الدخان على النار»[1].

لان النفس البشرية لا تحب العتاب والنصح والتوجيه إلا من رحم الله، قال تعالى ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩]. فأصبح النصح في هذا العصر ارخص ما يوهب فإلى الله المشتكى.

---

(١) إحياء علوم الدين، ١/ ٥٥٢.

المبحث الثالث:
سبل علاج الفتور في العبادة

لقــد ظهر جلياً خطــورة الفتور في العبــادة وأثرها في إضعاف العبد، لهذا كان يجمل بالباحث بعد بيان الأســباب والمظاهر الدالة على الفتور، أن يقدم العلاج النافع لهذا الداء القاتل.

العــلاج لغة: «الْعَيْنُ وَاللَّامُ وَالْجِيمُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَمَرُّسٍ وَمُزَاوَلَة»[١] ويقال «عالجه علاجا ومعالجة: زاوله، وداواه»[٢].

اصطلاحاً: لم أجد من عرف العلاج بهذا اللفظ تعريفاً اصطلاحياً، ولكن يمكن تعريفه بما عُرف به الدواء لأنه مرادف لمعنى العلاج كما في التعريف اللغوي، وهو «أســم لما يُتناول لإزالة المرض»[٣] حسياً أو معنويا.

وعليه فإن المقصود بعلاج الفتور في العبادة بأنه: بيان الأمور المؤدية إلى تقوية إيمان العبد وإزالة ما يطرأ عليه من ضعف وانكسار.

وبعد بيان أسباب الفتور في العبادة بشيء من التفصيل والبيان في المبحث الأول ثم بيان المظاهر والعلامات الدالة عليه، إذ أن المظاهر

---

(١) مقاييس اللغة، ٤/ ١٢١. مادة «علج».

(٢) القاموس المحيط، ١٩٩. مادة «علج».

(٣) انظر: كشف اصطلاحات الفنون والعلوم، لمحمد بن علي التهانوي، ١/ ٨٠١.

لا تنشأ إلا بعد الأخذ بأسبابها، فإنه يجدر بالباحث أن يبين سبل العلاج لهذا الداء.

*** أسس علاج الفتور في العبادة:**

- الاعتراف بالفتور في العبادة:

الاعتراف بالتقصير والضعف هو أول أساس وأهم بداية لعلاج هذا الداء، قال تعالى ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢].

أي «أقروا بها واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم، ولهم أعمال أخر صالحة، خلطوا هذه بتلك، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه»(١).

وقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].

وهنا «وصف لهم بملازمة ذكر الله وعدم الغفلة، ولذا إذا فعلوا فاحشة ذنباً كبيراً أو ظلموا أنفسهم بذنب دون الفاحش ذكروا وعيد الله - تعالى -، فبادروا إلى التوبة وهي الإقلاع عن الذنب والندم عن الفعل والعزم على عدم العودة إليه، واستغفار الله - تعالى - منه.

فالاعتراف بالذنب والندم عليه هو أساس لعلاج الفتور في العبادة وزيادة الإيمان ورسوخه.

---

(١) تفسير ابن كثير، ٤/٢٠٦.

ـ عدم الاستسلام للفتور في العبادة:

إن الاعتراف بهذا الداء لا يكفي وحده لعلاجه إذا لم يبادر العبد لعلاجه، فعلى العبد المسارعة في الاستجابة لله ولرسوله وعدم الاستسلام للواقع الذي يعيشه، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤].

والاستجابة تكون في المسارعة في العلاج وذلك بمعرفة أنه ما من داء إلا وأنزل الله له دواء، فقد ثبت في صحيح البخاري من أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**»(١) قال ابن القيم: وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها»(٢) وقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «قال علماؤنا: الاستغفار المطلوب هو الذي يحل عقد الإصرار ويثبت معناه في الجنان، لا التلفظ باللسان. فأما من قال بلسانه: أستغفر الله، وقلبه مصر على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبائر. وروي عن الحسن البصري أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى استغفار»(٣)، وعن أبي هريرة، قال: سمعت النبي ﷺ قال: «**إن عبدا أصاب ذنبا ـ وربما قال أذنب ذنبا ـ فقال: رب أذنبت ـ وربما قال: أصبت**

---

(١) صحيح البخاري، ٧/ ١٢٢.

(٢) الداء والدواء، ٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، ٤/ ٢١٠.

ـ فاغفر لي، فقال ربه: أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا، أو أذنب ذنبا، فقال: رب أذنبت ـ أو أصبت ـ آخر، فاغفره؟ فقال: أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب ذنبا، وربما قال: أصاب ذنبا، قال: قال: رب أصبت ـ أو قال أذنبت ـ آخر، فاغفره لي، فقال: أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثلاثا، فليعمل ما شاء»(١) قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «ودلت الآية والحديث على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه»(٢).

وقال ﷺ: «إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه»(٣) فمن اعترف بذنبه وتقصيره تاب الله عليه ووفقه للطاعة بعد الطاعة.

ولله در القائل:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف
بما جنى من الذنوب واقترف(٤)

وقال آخر:

أقرر بذنبك ثم اطلب تجاوزه
إن الجحود جحود الذنب ذنبان(٥)

---

(١) متفق عليه، البخاري، ٩/١٤٥، رقم الحديث (٧٥٠٧) ومسلم، ٤/٢١١٢، رقم الحديث (٢٧٥٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٤/٢١٣.

(٣) أخرجه البخاري، ٦/١٠١، رقم الحديث (٢٦٦١).

(٤) نقلاً عن الجامع لأحكام القرآن، ٤/٢١٣.

(٥) نقلاً عن: المرجع السابق، ٤/٢١٣.

فعلى العبد المسارعة في الاستجابة لله ولرسوله وعدم الاستسلام للواقع الذي يعيشه، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال: ٢٤] أي: «لما فيه حياتكم ولما هو سبب في حياتكم كالإيمان والعمل الصالح والجهاد»[١].

والاستجابة تكون في المسارعة في العلاج وذلك بمعرفة أنه ما من داء إلا وأنزل الله له دواء، فقد ثبت في صحيح البخاري من أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**»[٢] قال ابن القيم: «وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها»[٣].

فإذا علم العبد أن لهذا الداء دواء، سارع في علاجه، وإن استسلام له بحجة أن الداء تمكن منه ولا يمكنه العودة للقوة والجد والنشاط بعد الضعف والانقطاع لم يتمكن من علاج ذلك ليأسه وقنوطه واستسلامه للداء.

---

(١) أيسر التفاسير، ٢/ ٢٩٧.

(٢) صحيح البخاري، ٧/ ١٢٢، رقم الحديث (٥٦٧٨).

(٣) الداء والدواء، ٨.

المطلب الأول:
سبل علاج أمراض القلوب المسببة للفتور في العبادة

لعلاج أمراض القلوب المسببة للفتور في العبادة أدوية كثيرة، جمعتها في النقاط التالية:

ـ الإخلاص والصدق مع الله:

الإخلاص لغة: «الْخَاءُ وَاللَّامُ وَالصَّادُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ تَنْقِيَةُ الشَّيْءِ وَتَهْذِيبُه»[1] ويقال «خَلص الشيء بالفتح يخلص خُلوصاً إذا كان قد نشب ثم نجا وسلم، وأخلصه وخلصه، والإخلاص في الطاعة ترك الرياء. والتخليص التنحية من كل منشب، تقول خلصته من كذا تخليصاً، أي: نجيته تنحية فَتَخلَّصَ، كما يتخلص الغزل إذا التبس»[2].

واصطلاحاً: تنوعت عبارات السلف في تعريف الإخلاص، والقصد منها واحد، وسأذكر شيئاً منها:

التعريف الأول: «إفراد الحق ـ سبحانه ـ بالقصد في الطاعة»[3].

التعريف الثاني: «تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين»[4].

---

(١) مقاييس اللغة، ٢/٢٠٨. مادة «خلص».

(٢) الصحاح، مادة «خلص».

(٣) مدارج السالكين، ٢/٩١.

(٤) المرجع السابق، ٢/٩١.

التعريف الثالث: «هو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك»[١].

وحاصل هذه التعريفات، بأن يفرد الله بالعبادة وحده دون سواه فلا يُطلب الثناء من فلان وعلان من الناس من أجل عبادة أقامها وحافظ عليها.

فالإخلاص منزلته عالية من منازل السالكين المتعبدين لرب العالمين، وهو سر الثبات على العبادات، قال تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥].

ويوضح ابن القيم ـ رحمه الله ـ أثر الإخلاص والصدق مع الله في قوة دين العبد وثباته على الطاعات، فيقول: «إنما يجد المشقة في ترك المألوفات والعوائد من تركها لغير الله فأما من تركها صادقا مخلصاً من قلبه لله فإنه لا يجد في تركها مشقة إلا في أول وهلة ليمتحن أصادق هو في تركها أم كاذب فإن صبر على تلك المشقة قليلا استحالت لذة»[٢].

فلا وزن ولا قيمة إلا بالإخلاص والصدق مع الله، وبه ينجو العبد يوم الدين، فعن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه**

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول، لحافظ بن أحمد حكمي، ٢/ ٤٢٣.

(٢) الفوائد، ١٠٧.

نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار»[١].

فالإخلاص هو مناط الأمر كله وبه ثبات العبد على العبادات، فإن الله إذا علم من عبده صدق اللجوء إليه، ثبته وأعانه على فعل الخيرات وعصمه من إرتكاب المنكرات وهيأ له أسباب القبول، وبالإخلاص تقوى صلة العبد بربه بعد الانقطاع، فلا يقصد إلا الله وحده لا شريك له، فهو الرقيب المطلع عليه وعلى سرائر أعماله وخفايا خلواته، فيتحرر من كل عبودية لغير الله بما فيها عبودية الشهوات والأهواء، فيُخَلص القلب من كل الشوائب، وذلك أن المخلص لا يتوجه إلا لخالقه، فإذا كان ذلك سلم من غواية الشيطان، قال ـ تعالى ـ حكاية عن الشيطان ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣] فالشيطان نفسه يُقِرُّ

(١) أخرجه مسلم، ٣/ ١٥١٣، رقم الحديث (١٩٠٥).

أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز هو كشيطان عَن غوايته، ولا يجرؤ على الاقتراب منه.

وقال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٤].

يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ في إحدى خواطره: «فاعلم أن ترك النظر إلى الخلق، ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل، وإخلاص القصد، وستر الحال: وهو الذي رفع من رفع»(١).

فالإخلاص يرفع العبد إلى أعلى عتبات العبودية وبه يُملأ القلب خشية ورهبة من الله، فيصبح ظاهره كباطنه، ويخلص من جميع الشوائب؛ لذا كان المخلصون هم أصفياء الله وأولياؤه فثبتهم وألقى في قلوبهم الإيمان وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ومما يدل على ذلك قصة الغلام كما في قصة أصحاب الخدود(٢)، لما أخلص

(١) صيد الخاطر، ٢٦٤.

(٢) وأصل هذه القصة عند الإمام مسلم في صحيحه، ٤/٢٢٩٩، رقم الحديث (٣٠٠٥) ونصها: عن صهيب، أن رسول الله ﷺ قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر، قال للملك: إني قد كبرت، فابعث إلي غلاما أعلمه السحر، فبعث إليه غلاما يعلمه، فكان في طريقه، إذا سلك راهب فقعد إليه وسمع كلامه، فأعجبه فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر، فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس=

لله حفظه الله بحفظه وثبته وقوى الإيمان في قلبه وعصمه من نزغات الشيطان وهمزاته.

=للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هاهنا لك أجمع، إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدا إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوت الله فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدا، إنما يشفي الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جيء بجليس الملك فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقاه، ثم جيء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك، فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قرقور، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فقال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، رب الغلام، ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخدت وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري فإنك على الحق».

ولا ريــب أن في قراءة تراجم الســلف الصالح وما هم عليه من الإخلاص وما أورثه ذلك من تحقيق العبودية الخالصة لله والتجرد له وحده ـ ســبحانه ـ في فعل الطاعات واجتناب المنكرات، ترفع من همة العبد في فعل الطاعات واجتناب المنكرات.

وهذه جملة من أحوالهــم وأقوالهم في مقام الإخلاص وصدق اللجوء إلى الله، لعلها تكون سبباً في الإقتداء بهم.

ـ يقــول ســفيان ابن عيينة ـ رحمــه الله ـ: «ما أخلص عبد لله أربعين يوما إلا أنبت الله الحكمة في قلبه نباتا، وأنطق لســانه بها، وبصره عيوب الدنيا داءها ودواءها»[١].

- ووصى الإمام احمد ـ رحمه الله ـ ابنه قائلاً: «يا بني انو الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير»[٢].

ولهــذا كان الصالحون يخفون عباداتهم، خوفاً مما يخدش الإيمان ويضعفــه ومن ذلك ما قاله الزبير بن العــوام ـ رضي الله عنه ـ: «أيكم اســتطاع أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل»[٣] و عن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ قال: «إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشــعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر بــه الناس، وإن كان الرجل ليصلــي الصلاة الطويلة في بيته وعنده

(١) حلية الأولياء ، ٧/ ٢٨٧.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لمحمد بن مفلح المقدسي، ١/ ١٠٤.

(٣) الزهد والرقائق لعبد الله ابن المبارك، ٣٩١.

الزور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقواما ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سر فيكون علانية أبدا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم ـ عز وجل ـ»[١].

وقد بين ابن القيم كيف يكون السبيل إلى الإخلاص فقال: «لا يجتمع الإخلاص في القلب، ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص، فأقبل على الطمع أولاً: فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص، فإن قلت وما الذي يسهل علي ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح، قلت أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينا أنه ليس من شيء يطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه لا يملكها غيره ولا يؤتى العبد منها شيئا سواه، وأما الزهد في الثناء والمدح فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويزين ويضر ذمه ويشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي إن مدحي زين وذمي شين، فقال ذلك الله ـ عز وجل ـ فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشنيك ذم وارغب في مدح من كل الزين في مدحه وكل الشين في ذمه، ولن يقدر على ذلك إلا

(١) الزهد والرقائق، ٤٥.

بالصبر واليقين فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب»[١].

فبالإخلاص يزداد إيمان العبد وتنشط جوارحه، ويسارع إلى مرضاة الله من الأقوال والأعمال؛ فمن صلحت نيته صلح عمله وأمن من الضعف والانقطاع؛ وذلك لصلاح نيته وخلوصها من شوائب الرياء وحب الدنيا والتطلع إليها ، ومن كان هذا شأنه عصمه الله وثبته.

ـ تذكر الموت والدار الآخرة:

من الأدوية النافعة لعلاج الفتور في العبادة، ذكر الموت وقصر الدنيا وأن مآلها إلى زوال وفناء، وتذكر الدار الآخرة وما فيها من الأهوال والشدائد وما يتبعها من منازل الآخرة إما إلى جنة وإما إلى نار، و من أعظم السبل المقوية للإيمان الاستعداد لذلك اليوم بالقربات والطاعات واستقامة الجوارح والأركان والابتعاد عن النفس وزجرها عن المعاصي والآثام، واستحضار مراقبة الله سراً وعلانية، وتجديد التوبة وإيقاظ العزم على الاستقامة على الطاعات، فعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذ بصر بجماعة، فقال: «**علام اجتمع عليه هؤلاء؟**» قيل: على قبر يحفرونه. قال: ففزع رسول الله ﷺ، فبدر بين يدي أصحابه مسرعا حتى انتهى إلى القبر، فجثا عليه. قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بل الثرى من دموعه، ثم أقبل

(١) الفوائد، ١٤٩.

علينا قال: **«أي إخواني لمثل اليوم فأعدوا»**(١).

فذكر الإنسان للموت يدفعه إلى العمل والعبادة، والاستعداد له، فعن ابن عمر ـ رضي الله عنها ـ، أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله أي المؤمنين أفضل؟ قال: **«أحسنهم خلقا»**، قال: فأي المؤمنين أكيس؟ قال: **«أكثرهم للموت ذكرا، وأحسنهم لما بعده استعدادا، أولئك الأكياس»**(٢).

ولا ريب أن «الإكثار من ذكر الموت لابد أن يجلب اليقين به إلى القلب حتى يستقر فيه، وما ذاك إلا بمثابة الضمان الحقيقي ليقظة القلب وتطلعه إلى ما عند الله ـ تعالى ـ، واستعلائه على قيود الأرض، وترفعه على متاع الدنيا»(٣)، قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥].

ولقد أدرك السلف ـ رضي الله عنهم ـ وصية نبيهم ﷺ فجعلوا الموت أمام أعينهم، فقصرت آمالهم وصلحت أعمالهم وقلوبهم، لما أدركوا بأنه لا مفر منه ولا مناص، فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه كان يقول إذا قعد: **«إنكم في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتي بغتة من زرع خيرا يوشك أن يحصد رغبة ومن**

---

(١) سنن ابن ماجه ٢/ ١٤٠، رقم الحديث (٤١٩٥) وحسنه الألباني في ضعيف وصحيح ابن ماجه.

(٢) سنن ابن ماجه، ٢/١٤٢٣، رقم الحديث (٤٢٥٩) وحسنه الألباني في تعليقه على سُنن ابن ماجه.

(٣) هزة الإيمان، فريد مناع، ٥٤.

زرع شرا يوشك أن يحصد ندامة ولكل زارع مثل زرع»[1] و قيل للربيع بن خثيم ـ رحمه الله ـ: لو جالستنا فقال: «لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة فسد علي»[2].

فلا ينبغي أن يغفل العبد عن ذكر الموت والدار الآخرة، وأنه راحل عن الدنيا وملذاتها، حتى لا تعتريه الغفلة وهو في سكرة الدنيا وشهواتها وقد بين الله ذلك في كتابه، فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١].

والمراد: «الإنفاق الواجب مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ من قبل أن يرى دلائل الموت، ويعاين ما بيأس معه من الإمهال، ويضيق به الخناق، ويتعذر عليه الإنفاق ويفوت وقت القبول، فيتحسر على المنع، ويعضّ أنا مله على فقد ما كان متمكنا منه»[3].

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٣/ ٣٠٥.

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٢/ ١١٦.

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ٤/ ٥٤٤.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يخبر ـ تعالى ـ عن حال المحتضر عند الموت، من الكافرين أو المفرطين في أمر الله ـ تعالى ـ، وقيلهم عند ذلك، وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا، ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته»(١).

وعن بريدة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها**»(٢) فالقبر أول منازل الآخرة، فإذا عرف العبد ذلك اتعظ وتذكر وحاسب نفسه وأعتبر وتذكر واستعد لهذا اليوم.

ولله در القائل:

فلا تغرنك الدنيا وزينتها
وانظر إلى فعلها في الأهل والوطن
وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها
هل راح منها بغير الزاد والكفن
خذ القناعة من دنياك وارض بها
لو لم يكن لك إلا راحة البدن
يا نفس كفي عن العصيان واكتسبي
فعلاً جميلا لعل الله يرحمني(٣)

فينبغي للعبد أن لا يغفل عن الموت وسكرته والقبر وظلمته والحساب وشدته إذا أرد حياة قلبه وزيادة إيمانه، وحياة قلبه.

---

(١) تفسير ابن كثير، ٥/ ٤٩٣.

(٢) أخرجه مسلم، ٢/ ٦٧٢، رقم الحديث (٩٧٧).

(٣) نقلاً عن: مجموعة القصائد الزهديات، لعبد العزيز بن محمد السلمان، ١/ ١٧٥.

ـ مراقبة الله والإكثار من ذكره:

المراقبة هي «دوام علم العبد وتيقنه بإطلاع الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على ظاهره وباطنه»(١).

قال ﷺ في مقام الإحسان حين سأله عنه جبريل: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» فمراقبة الله، تستلزم خوفه وخشيته، وتعظيمه، ومحبته، ورجاءه، والإيمان بعلمه وإحاطته، وقدرته، فمن أخذ بهذا هانت عليه الدنيا وشهواتها وعظمت في قلبه الآخرة وما فيها من نعيم لعباد الله الصالحين، وذلك أن الإيمان بالله والعلم بمراقبته والخوف منه صمام الأمان العاصم للعبد من الانسياق وراء الشهوات، قال ـ تعالى ـ على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ في قصة إمراة العزيز عندما راودته عن نفسه ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣] وما تصدر هذه الكلمة إلا ممن راقب الله حق المراقبة وأستشعر قوله تعالى ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨] فزاد قلبه رغبة ورهبة من الله، فإن المؤمن إذا تربي على مراقبة الله، ومطالعة أسرار أسمائه وصفاته كالرقيب والعليم والسميع والبصير؛ أثمر خوفاً من الله في السر والعلانية، وأصبح إنساناً سوياً، وعبداً تقياً، لا تستهويه الدنيا وملذاتها ولا تستعبده شهوه، ولا يتسلط عليه الشيطان ويثبطه عن فعل الطاعات.

---

(١) مدارج السالكين، ٢/ ٦٥.

فالمراقبة والإكثار من ذكر الله، من أعظم البواعث على المسارعة في الخيرات والاجتهاد في العبادات ومما يدل على ذلك جملة من النصوص:

- قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وذلك أن العبد إذا عرف أن الله مطلع عليه، سارع إلى طاعته، وهذا حال المحب الصادق الذي يعبد الله كأنه يراه.

- قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨].

فالإحسان أعلى مقامات الطاعة إذا يدفع المرء إلى تحقيق العبودية لله وبذل الوسع في الاجتهاد بالطاعات في جميع الأوقات، قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه عن المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه، لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلا عن مواقعتها، فإذا خرج من دائرة الإحسان، فاته صحبة رفقته الخاصة، وعيشهم الهنيء، ونعيمهم التام، فإن أراد الله به خيرا أقره في دائرة عموم المؤمنين»[1].

---

(١) الداء والدواء، ١/ ٧١.

*** سبل الوصول إلى سلم المراقبة:**

ـ المعرفة الحقيقية بالله، فمن كان بالله أعرف كان لله أخوف، وذلك بمعرفة أسمائه وصفاته وحفظها وفهمها والعمل بمقتضاها، يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذا المعنى: «إذا شهد معنى اسمه البصير ـ جل جلاله ـ الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في حندس الظلماء، ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها في ظلمة الليل، وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية بحرس حركاتها وسكناتها وتيقن أنها بمرأى منه ـ تبارك وتعالى ـ ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء»[1] فإذا تصور العبد هذه المعاني أورثته خشية ورهبة من الله ورغبة إليه.

ـ مداومة ذكر الله، فهو قوت القلوب، وبه تطمئن النفوس، وأعظم من ذلك الصلة بكتاب الله ـ تعالى ـ: تلاوة وفهماً وتدبراً وعملاً، فكلما تغذى الروح والبدن بذكر الله كلما أزداد القلب مراقبة وخوفاً من الله.

ـ تعظيم الله ـ سبحانه وتعالى ـ؛ «وذلك إذا ثبت تعظيم الله في قلب العبد أورثه الحياء من الله والهيبة له فغلب على قلبه ذكر اطلاع الله العظيم ونظره بعظمته وجلاله إلى ما في قلبه وجوارحه، وذكر المقام غدا بين يديه وسؤاله إياه عن جميع أعمال قلبه وجوارحه،

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ٤٤.

وذكر دوام إحسانه إليه، وقلة الشكر منه لربه فإذا غلب ذكر هذه الأمور على قلبه هاج منه الحياء من الله فاستحى الله أن يطلع على قلبه وهو معتقد لشيء مما يكره، أو على جارحة من جوارحه، يتحرك بما يكره فطهر قلبه من كل مغصية، ومنع جوارحه من جميع معاصيه»[(١)].

ولله در القائل:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل
خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة
ولا أن ما يخفي عليه يغيب[(٢)]

وقال الآخر:

وإذا ما خلوت بريبة في ظلمة
والنفس داعيةٌ إلى الطغيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها
إن الذي خلق الظلام يراني[(٣)]

فالمراقبة تورث الخشية والإنابة وتدفع العبد إلى المسابقة إلى الخيرات والبعد عن التكاسل والتباطؤ في فعلها.

---

(١) تعظيم قدر الصلاة، لمحمد بن نصر المروزي، ٢/ ٨٢٥.

(٢) تُنسب لأبي نواس، ولأبي العتاهية، ولغيرهما، انظر: شعر الخوارج، لإحسان عباس، ٢٣٤.

(٣) نونية القحطاني، لمحمد بن عبدالله القحطاني الاندلسي، ٢٩.

المطلب الثاني:
علاج الأسباب الخارجية للفتور في العبادة

لاشك أن المؤثرات الخارجية، لها أثرها في الصد عن عبادة الله والإشغال عنها، وسوف يكون الحديث في هذا المطلب في بيان السبل المؤدية لعلاج هذه المؤثرات وجعلها دافعة للعبد للاجتهاد في الطاعات بدل أن تكون عائقة له.

❊ سبل علاج الأسباب الخارجية للفتور في العبادة:

- تهيئة الأجواء الإيمانية في داخل الأسرة:

لقد بينا أثر فتنة الزوجة والأولاد على العبد وإضعافها لعبادة العبد وإشغاله عن طلب معالي الأمور كالانشغال بتأمين المعيشة واللهو واللعب والتوسع في المباحات وغيرها على حساب العبادة والاستعداد للآخرة، والتسليم لذلك دون معالجة له، وقد ثبت في صحيح البخاري من أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ قال: «**ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء**»[1] ويكون علاج هذا السبب بتهيئة الأجواء الإيمانية الأسرية ويكون ذلك من جانبين:

١ - جانب وقائي: وذلك باختيار الزوجة الصالحة وأن لا يتهور في زواجه وينظر إلى الجمال وحده ويندفع وراءه ويغفل عن دين

(١) سبق تخريجه.

الزوجة واستقامتها، وقد حثت النصوص الشرعية على ما يدل على هـذا، فمن تلك النصوص، ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك**»(١).

أي: «أن تكون المرأة ذات دين وصلاح، فيتزوجها «**لدينها**» وصلاحها، وهو أسمى المقاصد، لأن المرأة الصالحة من أعظم نعم الدنيا، ولذلك أمر ـ ﷺ بالمبادرة إليها وتفضيلها على غيرها، حيث قال: «**فاظفر بذات الدين**» أي فاحرص على أن تفوز بالمرأة الصالحة المتدينة لأنها خير متاع الدنيا إن نظرت إليها سرتك، وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك في مالك وعرضها»(٢).

ـ وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ، أن رسول الله ﷺ، قال: «**الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة**»(٣).

ـ وعن أنس بن مالك، ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «**من رزقه الله امرأة صالحة، فقد أعانه الله على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الثاني**»(٤).

فاختيار الزوجة الصالحة يكون سبباً في تنشئة الأولاد التنشئة الإيمانية، وعندئذ تكون الزوجة والأولاد خيرُ معين على الثبات على الطاعات واجتناب المنكرات.

(١) أخرجه البخاري، ٧/ ٧، رقم الحديث (٥٠٩٠).

(٢) منار القارى شرح مختصر صحيح البخاري، لحمزة محمد قاسم ٥/ ٩٧.

(٣) أخرجه مسلم، ٢/ ١٠٩٠، رقم الحديث (١٤٦٧).

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ١/ ٢٩٤. رقم الحديث (٢٦٨١). وحسنه الألباني في الترغيب والترهيب.

٢ ـ جانب علاجـي: ويكون ذلـك بوعظ الزوجـة والأولاد وتذكيرهم بالآخرة، وما أعده الله سـواء للمقبلين عليه أو المعرضين عنه وحفظ البيت من المنكرات كالشاشـات والقنوات التي تصرفهم عن عبادة الله والاسـتهانة بأوامره وزاجره واسـتبدالها بقنوات خير وصلاح، لا يُسمع منها إلا الآيات والعظات والدروس والمحاضرات والنـدوات وما ينفعهم في الدنيا والآخرة، قـال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم: ٦] أي «علمـوا أهليكـم من العمل بطاعة الله ما يقون به أنفسهم من النار»[١].

وتذكيرهم بأن عبادته لن تشغله عن تأمين مستقبلهم والسعي في مصالحهم، قال تعالـى ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه ١٣٣].

وبيان فضلهم إذا قاموا بما يعينه على أمور دينه وما أعده الله لهم من جزيل الثـواب، كقوله ﷺ: «**رحم الله رجلا قام مـن الليل فصلى، وأيقـظ امرأتـه، فإن أبت نضح في وجهها الماء، رحـم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء**»[٢].

فإذا هيأ الزوج بيته التهيئة الإيمانية وقائياً وعلاجياً كان ذلك عوناً له على العبادة وعصمة له من الفتور فيها بإذن الله.

---

(١) جامع البيان، ٢٣/ ٤٩١.

(٢) رواه أبو داود في سـنته ،٢/ ٣٣، رقم الحديث (١٣٠٨) وحسـنه الألباني في صحيح سـنن أبي داود، ٣٥٨.

- مفارقة البيئة الفاسدة:

إن للبيئة أثراً جسيماً على استقامة العبد ما لا يخفى على عاقل من العقلاء، فإذا كانت كذالك، فإن على المرء أن يهجرها ويغيرها إلى حيث تعلو همته، كي يتحرز من سلطان تأثيرها وقيودها المثبطة، وقد شهدت النصوص الشرعية بذلك، منها ما رواه أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن نبي الله - عليه الصلاة والسلام - قال **«كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء»** .

فمن أراد سلامة دينه وتبدل حاله من الضعف والإنكسار إلى القوة والجد والنشاط في العبادة فعليه بمفارقة هذه البيئة الفاسدة إلى بيئة صالحة تعينه على العبادة كما في قصة الرجل الذي قتل مائة نفس، فعندما آراد التغير والتبدل والاقبال على الله غير بيئته إلى حيث تعلو همته، قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فعلى العبد أن يبحث عمن يعينه ويدله على الخير ويعينه عليه بدلاً ممن يثبطه عن الطاعات والقربات.

- مصاحبة الأخيار وأهل الهمم العالية:

من أعظم الأدوية النافعة لداء الفتور في العبادة، مصاحبة الأخيار وأصحاب الهمم العالية، فالطيور على أشكالها تقع، وكل قرين بالمقارن يقتدي، والصاحب ساحب، وإن المرء لترتفع همته عند رؤيتهم فضلاً عن أقوالهم وأفعالهم، لأن رؤيتهم تذكره بالله، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رجل: يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال: «**الذين إذا رؤوا ذكر الله**» لأن أصحاب الهمم العالية هم الذين يرفعون الهمم إلى القمم، فلا يرضون بالقليل من الأعمال الصالحة إنما يطلبون الزيادة ويحتقرون أعمالهم أمام الله، فإذا ذكروا الله ذكروه ذكراً كثيرا، و إذا صلوا، صلوا حتى تتفطر أقدامهم وإذا دعوا الله دعوه الفردوس الأعلى وهكذا في سائر الطاعات، فهمتهم عالية في كل قربة وعبادة.

ولا شك بأن الصاحب ساحب فإن صاحب العبد من تعلو همته ويسعى في طلب المعالي فإن ذلك سوف يؤثر عليه ويرفع من شأنه، فعن أبي موسى - رضي الله عنه -، عن النبي ﷺ، قال: «**إنما مثل الجليس الصالح، والجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك: إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير: إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة**»[1].

(١) سبق تخريجه.

وقال زين العابدين علي بن الحسين ـ رضي الله عنهما ـ: «إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه في دينه»[١] فصاحب الهمة العالية دائماً ما يذكر صاحبه بالعبادات وفضلها وعظيم أجرها، فترفع به الهمة وتنشط في العبادة، فلا يشغالها شغال ولا يلهيها لاعب، ولا ثبطها خامل.

ولله در القائل:

أنت في الناس تقاس ... بالذي اخترت خليلا

فاصحب الأخيار تعلو ... وتنل ذكراً جميلا[٢]

وعن جعفر الضبعي ـ رحمه الله ـ، قال: «كنت إذا وجدت من قلبي قسوة نظرت إلى وجه محمد بن واسع نظرة وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أن وجهه وجه ثكلى»[٣] وكان الإمام احمد ـ رحمه الله ـ: «إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد أو قيام بحق، أو أتباع للأمر: سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه معرفه، وأحب أن يعرف أحواله»[٤].

---

(١) حلية الأولياء، ٣/١٣٨.

(٢) نقلاً عن: علو الهمة، ٣٥٣.

(٣) حلية الأولياء، ٢/٣٤٧.

(٤) علو الهمة، لمحمد بن أحمد بن أسماعيل المقدم، ٣٥٣.

وحكى ابن القيم ـ رحمه الله ـ: ما استفاده من صحبة شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فقال: «وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة»[1].

فالحريص على المحافظة على عباداته والازدياد منها، لا يصاحب إلا أهل الهمم العاملين، وأولي الجد والاجتهاد، قال تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦] أي: «فليطلب بالطاعة والاستقامة الطالبون للنعيم المقيم»[2] فهم يتنافسون في الطاعات والعبادات طلباً بما عند الله من النعيم والأجر العظيم وما أعده الله لعبادة المتقين.

ـ معرفة طبيعة الطريق إلى الله:

إن على السالكين معرفة طبيعة الطريق الذي سلكوه، وما فيه من فتن وابتلاء ومعوقات تحول بينه وبين الله، قال تعالى ﴿أَحَسِبَ

---

(١) الوابل الصيب، ٤٨.

(٢) أيسر التفاسير، ٥/٥٣٨.

﴿ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢﴾ [العنكبوت: ٢] فالطريق إلى الله والارتقاء في سلم العبودية ليس أمراً سهلاً ممهداً، بل به الأوحال والأشواك والعقبات، وما ذلك إلا لمتحان الله لعبادة، وقد دلت النصوص على طبيعة هذا الطريق وما فيه من معوقات وفتن وابتلاءات، ومن جملة تلك النصوص:

ـ قال تعالى ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك: ٢] أي: «أحياكم ليختبركم أيكم يكون أحسن عملا ثم يميتكم ويحييكم ليجزيكم»(١).

ـ قال تعالى ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧] وهذا حكاية عما تعرض له إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأهله وولده من أذى في سبيل الله وإقامة العبودية لله ـ عز وجل ـ.

ـ عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال النبي ﷺ **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»**(٢).

---

(١) أيسر التفاسير، ٥/ ٣٩٣.

(٢) سنن ابن ماجه، ٢/ ١٣٣٤، رقم الحديث (٤٠٢٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته.

ـ وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسـول الله ﷺ: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[١] قال الامام النووي ـ رحمـه الله ـ: «فأما المكاره فيدخل فيهـا الاجتهاد في العبادات والمواظبة عليها والصبر على مشاقها»[٢].

ولا ينسى التأريخ ما تعرض له الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من تعذيب تحت لهيب شمس مكة المحرقة وما تعرض له آل ياسر وقبل هـذا كله ما تعرض له المصطفى ﷺ من كفار قريش عندما وضعوا عليه سلا الجزور[٣] وهو ساجد يتعبد لله، فمن عرف ذلك هان عليه كل بلاء، وسهل عليه تجاوز كل ما يحول بينه وبين الله.

(١) سبق تخريجه.

(٢) المنهاج شرح النووي على مسلم، ١٧/ ١٦٥.

(٣) وأصل الحديث عند مسلم في صحيحه،٣/١٤١٨، رقم الحديث (١٧٩٤) عن ابن مسعود، قال: بينما رسـول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان، فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشـقى القوم فأخذه، فلما سـجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا، وجعل بعضهم يميل على بعض وأنا قائم أنظر، لو كانت لي منعة طرحته عن ظهر رسـول الله ﷺ، والنبي ﷺ سـاجد ما يرفع رأسـه حتى انطلق إنسـان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته، رفع صوته، ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثا، وإذا سأل سـأل ثلاثا، ثم قال: «اللهم، عليك بقريش» ثلاث مرات، فلما سـمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافـوا دعوته، ثم قال: «اللهم، عليك بأبي جهل بن هشـام، وعتبة بن ربيعة، وشـيبة بن ربيعة، والوليد بن عقبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط».

المطلب الثالث :
سبل علاج الأسباب السلوكية للفتور في العبادة

لقد كان للأسباب السلوكية التي ينشأ عليها الإنسان أثر جلي في تشـــتت ذهنه وذاته؛ فيضعف تارة ويقوى تارة وما نشأ عن ذلك من تخبط وشتات في حياة العبد ومنهجه.

وكما دلت النصوص الشـــرعية بأنه ما مـــن داء إلا له دواء، فإذا أخذ العبد بهذا الدواء، تغير حاله وتبدل، وبان له الطريق، وسهل عليه سلوكه.

سبل علاج الأسباب السلوكية للفتور في العبادة:

- الحرص على العلم الشرعي:

إن ممـــا يحقق التوازن في حياة العبد، معرفته بالنصوص الشـــرعية والاعتدال في ذلك فـــلا يطغى الجانب التعبدي على العلمي وكذلك العلمي على التعبدي ومعرفة الهدي النبوي في مختلف شؤون الحياة، ولا يمكن معرفة ذلك إلا من خلال الدروس العلمية والمحاضرات الوعظية وقراءة سير السلف الصالح وتطبيقهم لما ورثوه من المنهج النبوي.

١ــ حضور الدروس العلمية والمحاضرات التربوية والوعظية.

لا يخفـــى على عاقل ما للدروس والمحاضرات التربوية والوعظية من تهذيب نفس العبد وسلوكه، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [الأنعام: ٩٠] فالعلم يدفع العبد إلى خشية الله ـ عز وجل ـ، وخشية الله تورث العمل.

وعن عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ، قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصفة، فقال: **«أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان[(١)]، أو إلى العقيق[(٢)]، فيأتي منه بناقتين كوماوين[(٣)] في غير إثم، ولا قطع رحم؟»**، فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك، قال: **«أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم، أو يقرأ آيتين من كتاب الله ـ عز وجل ـ، خير له من ناقتين، وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع، ومن أعدادهن من الإبل»[(٤)]**.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»[(٥)]** قال النووي ـ رحمه الله ـ: «فضل المشي في طلب العلم ويلزم من ذلك الاشتغال بالعلم الشرعي بشرط أن يقصد به وجه الله ـ تعالى ـ وان كان هذا شرطا في كل عبادة لكن عادة العلماء يقيدون هذه المسألة به لكونه قد يتساهل فيه بعض

(١) بطحان: بفتح الباء، وهو اسم وادي بالمدينة. يُنظر: لسان العرب، ٢/ ٤١٤.

(٢) العقيق: واد بظاهر المدينة. يُنظر: مختار الصحاح، ١/ ٢١٤.

(٣) كَوْمَاوَينِ: أي ناقة مشرفة السنام عاليته. يُنظر: لسان العرب، ١٢/ ٥٢٩.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، ١/ ٥٥، رقم الحديث (٨٠٣).

(٥) أخرجه مسلم، ٤/ ٢٠٧٤، رقم الحديث (٢٦٩٩).

الناس ويغفل عنه بعض المبتدئين»(١).

فالسعي في طلب العلم بحضور الدروس العلمية والمحاضرات وما فيه من نصائح وتوجهات، فلا يمضي على العبد فترة وجيزة، إلا وقد جمع علماً كثيراً، يبصره في المنهج النبوي في هذه الحياة، بالإضافة إلى ما يترتب عليها من تقوية إيمانه والرغبة في العمل الصالح.

٢ ـ قراءة سير السلف وحالهم مع العبادة.

من أعظم الأمور على ترفع الهمم وتشحذ النفوس في الإزدياد من الأعمال الصالحة قراءة تراجم الصالحين من علماء السلف، إذ أنهم هم النموذج في التطبيق العملي للمنهج النبوي، قال تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] وبشهادة رسول ﷺ لهم، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ، قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»(٢).

فقراءة سير السلف من الصالحين من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين، تربية للنفوس على شحذ الهمم، فهم أهل الجد والاجتهاد والهمم العالية، الذين حفظ الله بهم الدين، فكم من عبد قرأ سيرة عبد صالح فتغيرت حياته، ونشط بعد كسل وفتور أو أعتدل بعد غلو وجفاء.

(١) المنهاج شرح مسلم بن الحجاج، ١٧/ ٢١.

(٢) أخرجه مسلم٤/ ١٩٦٣، رقم الحديث (٢٥٣٣).

ولقراءة سير السلف فوائد عظيمة تعين على ثبات العبد واستقامته، ومنها:

١ ـ علو الهمة وثبات القلب، فسير الصالحين جند من جنود الله يثبت الله بها أولياءه، ومما يدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]. أي: ليطمئن قلبك ويثبت ويصبر على كما صبر الرسل وأهل الإيمان من قبلك، فإن النفوس تأنس بالاقتداء، وتنشط على العبادات، وتتنافس فيها، إذا علمت أن غيرها فقد بلغ مبلغا من الجد والاجتهاد.

٢ ـ الاقتداء بهم والاعتبار بمواعظهم وأحوالهم، قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «وعليكم بملاحظة سير السلف، ومطالعة تاصنيفهم وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم... فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر هممهم، وحفظهم وعباداتهم، وغرائب علومهم: ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب. ولله الحمد»(١).

٣ ـ صلاح القلب، قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب؛ إلا أن يمزج بالرقائق، والنظر في سير السلف الصالحين. فأما مجرد العلم بالحلال والحرام، فليس له كبير عمل في رقة القلب؛ وإنما ترق القلوب بذكر رقائق الأحاديث، وأخبار السلف الصالحين؛ لأنهم

---

(١) صيد الخاطر، ٤٥٤.

تناولا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها والمراد بها. وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق، لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث همة أحدهم في الحديث العالي، وتكثير الأجزاء، وجمهور الفقهاء في علوم الجدل، وما يغالب به الخصم. وكيف يرق القلب مع هذه الأشياء؟!»[١].

٤ ـ معرفة العبد قدر نفسه، قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «ومن نظر في سير السلف من العلماء العاملين استقر نفسه فلم يتكبر»[٢] فمعرفة سير الصالحين من السلف ترفع الهمم ويبعدها عن توافه الأمور والرهبانية في الدين.

ـ الوسطية والاعتدال في العبادة:

والوسطية في اللغة: «الْوَاوُ وَالسِّينُ وَالطَّاءُ: بِنَاءٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى الْعَدْلِ وَالنِّصْفِ. وَأَعْدَلُ الشَّيْءِ: أَوْسَطُهُ وَوَسَطُهُ»[٣] قال الله تعالى ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]: أي «العدل والخيار»[٤].

وفي الاصطلاح: سلوك منهج وسط بين طرفين متناقضين هما الإفراط والتفريط في كل مناحي الحياة بهدف تحقيق التوازن والاعتدال.

---

(١) المرجع السابق، ٢٢٨.

(٢) تلبيس إبليس، ١١٦.

(٣) مقاييس اللغة، ٦/١٠٨، مادة «وسط».

(٤) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ٢/٥.

قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فخير الأمور أوسطها، وذلك من خلال إعطاء كل ذي حق حقه في أمور الدنيا والآخرة، فلا يطغى جانب على جانب، مما يحقق العبودية لله وعدم الانقطاع عنها، فعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال **«إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»**(١).

وما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، يقول: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: **«أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما واﷲ إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

فمعرفة هذه النصوص والهدي النبوي يحقق التوازن في حياة العبد، فلا يطغى جانب التعبد على جانب التساهل والترخص في المباحات وعكسه، ولا يطغى جانب العمل على جانب العلم، فلكل ذي حق حقه من الجهد والتعب، فعن عائشة: أن رسول الله ﷺ قال: «**سددوا وقاربوا، واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة، وأن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل**»[(١)]. أي: «من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية فأنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله ـ تعالى ـ»[(٢)].

فلا رهبانية ولا غلو ولا تنطع في العبادات ولا تساهل وترخص في المباحات والمحرمات، فهما طرفان مذمومان، لا خير فيهما، وإنما التوسط والاعتدال.

٣ ـ الاستجابة للناصحين.

قبول النصيحة دليل نية العبد في إصلاح نفسه وإنقاذها من الهلاك و الفتور في العبادة، فالرجوع إلى الحق فضيلة، قال تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝﴾ [الأعلى: ٩ ـ ١١].

فالمؤمن الصادق الذي يريد إنقاذ نفسه يقبل النصيحة إذا نُصح، أما الشقي الذي فتر وتكاسل يُعرض عنها ويردها.

---

(١) متفق عليه، صحيح البخاري، ٨/٩٨، رقم الحديث (٥٦٧٣)، ومسلم، ٤/ ٢١٧٠، رقم الحديث (٢٨١٦).

(٢) فتح الباري، ٩/١٠٥.

ولقبول النصيحة فوائد جلية لمن آخذ بها، فمنها:

- فيها الأجر العظيم عند الله - عز وجل -، فمن أقبل على الله أقبل الله عليه، ومن صدق مع الله أفلح ونجا.

- فيها إعانة للمؤمن على نفسه وهواه وشيطانه.

- فيها تقوية لهمة المؤمن وعزيمة، فإذا ذُكر تذكر.

٤ - لزوم الجماعة.

إن لـــزوم الجماعـــة والألتفاف حول الصالحين ســـبب للنجاة من الفتور في العبادة والتكاسل فيها وإن ظهر عليهم بعض القصور فهو بالنصح والمناصحة ســـوف يزول بـــإذن الله، فهم من يرفعون همته ويذكرونه ويدفعونه للجـــد والاجتهاد، قال تعالى ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فلزوم جماعة المسلمين، سبب للعصمة بإذن الله من الهلاك فهم خير من يعين العبد ويحمله علـــى الصبر والمصابرة ومواجهة الفتن والشهوات وما يتعرض له في هذه الدنيا.

فعن أبي الدرداء - رضي الله عنه -، قال: ســـمعت رســـول الله ﷺ يقول: «**ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية**»[١].

(١) سنن أبي داود، ١/ ١٥٠، رقم الحديث (٥٤٧) قال الألباني حديث حسن، في صحيح سنن أبي داود.

فالجماعة قوة، و تأمل هذا المثال حينما يُريد العبد أن يكسر عشرات الأعواد فإنه لا يستطيع على كسرها جميعاً في قبضة واحده وإنما يفرقها لتصبح سهله عليه، ومن ثم يكسرها واحد تلو الآخر، وهذا حال الشيطان فإنه لا يقوى على المؤمن مع إخوانه، فيكون أول ما يوسوس له بمفارقتهم والأبتعاد عنهم، فإذا فعل، انفرد له الشيطان فبدأ يوسوس به ويضعفه حتى يهلكه، وهذا واضح جلي في الواقع.

فليحذر العبد من سلوك هذا المسلك وقد يكون مبدأ ذلك رغبة في الخير والانفراد والخلوة والتفرغ لعبادة الله من دون معونة إخوانه له فهذا خلل عظيم، ومسلك خطير، فينفرد الشيطان به ويتلاعب به حيث يشاء.

٥ ـ تنظيم الوقت.

وهذا هو شعار المؤمنين ومطمع الصالحين ومجال المتنافسين، ولهذا كان للوقت قيمة في كتاب الله وسنة رسول الله، وبه أقسم الله ـ عز وجل ـ في آيات كثيرة، قال تعالى ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ [الفجر: ١ ـ ٢] وقوله تعالى ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ [الضحى: ١ ـ ٢] وقوله تعالى ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١ ـ ٣] وقوله تعالى ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ [الليل: ١ ـ ٢] أي: «إن الإنسان إذا عُمِّر في الدنيا لفي نقص وضعف، إلا المؤمنين،

فإنهم يكتب لهم أجور أعمالهم التي كانوا يعملون في شبابهم وصحّتهم»(١).

وغيرها من الآيات التي تبين أهمية الوقت وضرورة اغتنامه في طاعة الله، وهناك أحاديث كثيرة توضح ذلك، قال ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»(٢).

فعلى العبد أن يحافظ عليه ويستغله بما ينفعه في الدنيا والآخرة، وقد ضرب السلف أروع الأمثلة في الحفاظ على الوقت وتنظيمه وعدم إهداره، ومن تلك الأمثلة: ما قاله الإمام ابن عقيل الحنبلي ـ رحمه الله ـ: «إني لا يَحِلُّ لي أن أضيع ساعة من عمري، فإذا تعطل لساني من مذاكرة ومناظرة، وبصري من مطالعة، عملت في حال فراشي وأنا مضطجع، فلا أنهض إلا وقد يحصل لي ما أسطره، وإني لأجد من حرصي على العلم في عشر الثمانين أشدّ مما كنت وأنا ابن العشرين»(٣).

فالوقت هو شرف الإنسان وقيمته فإن حافظ عليه بما ينفعه كان له عوناً في سلوك الصراط المستقيم، ونجا مع عباد الله المخلصين.

والمحافظة على الأوقات وتنظيمها يكون بأحد طريقين:

---

(١) زاد الميسر، ٤/ ٤٨٧.

(٢) أخرجه البخاري، ٨/ ٨٨، رقم الحديث (٦٤١٢).

(٣) الهمة إلى طرق القمة، ٣٧.

١ ـ معرفة شـــرف الوقت وأهميته، قال ابـــن الجوزي: «ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل»[(١)].

٢ ـ وضـــع برنامج معين يحفظ للإنســـان وقتـــه، ويعينه على استغلاله، ويتضح من خلاله وضوح الهدف الذي يقصده.

وهناك سبل آخرى لعلاج الفتور في العبادة:

١ ـ تعاهد الايمان ومحاسبة النفس.

إن من السبل المهمة في علاج الفتور معاهدة الإيمان بتقويته بالطرق الشـــرعية ومحاسبة النفس عند تقصيرها وقاية من الفتور في العبادة بـــإذن الله، فقد روى الحاكم عن عبد الله بـــن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهـــم ـ، قال: قال رســـول الله ﷺ: «**إن الإيمان ليخلق في جـوف أحدكم كما يخلق الثـوب الخلق، فاسـألوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم**»[(٢)].

«فمـــن فقه العبد أن يتعاهد إيمانه ومـــا ينقص منه ومن فقه العبد أن يعلـــم أيزداد إيمانه أم ينقص وإن من فقه الرجل أن يعلم نزعات الشيطان أنى تأتي»[(٣)].

---

(١) صيد الخاطر، ٣٣.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، ١/ ٤٥، رقم الحديث (٥).

(٣) توضيـــح المقاصد وتصحيح القواعد في شـــرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد إبراهيم العيســـى، ٢/ ١٤٠.

وذلك بإلاكثار من تلاوة القرآن وتدبره، قال تعالى ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

والتأمل في آياته و«العلم بها، وفهمها، واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر»[١].

وبالإكثار من العبادة والحرص على إخفائها فإن العبد إذا اخلص لله وأخفى علمه زاد إيمانه وقوى يقينه بالله وكذلك بتحري الأيام الفاضلة وعدم ترك السنن المؤكدة في السفر والحضر، ومصارحة النفس في تقصيرها.

٢ ـ الحرص على النوافل.

للنوافل الأثر الواضح لزيادة الإيمان والمحافظة عليه والقرب من الله ـ عز وجل ـ، ويدل على هذا ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال النبي ﷺ **«وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»**[٢]. أي «أن محبة الله ـ تعالى ـ للعبد تقع بملازمة التقرب بالنوافل»[١] فمن أحبه الله، عصمه من الزيغ والفتور والهلاك.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ٣٥٦.

(٢) أخرجه البخاري، ٨/ ١٠٥، رقم الحديث (٦٥٠٢).

فالنوافل هي سياج الفرائض، ومن دار حول الحمى أوشك أن يقع فيها، فإذا حافظ العبد على النوافل وداوم عليه ومن ثم فترت نفسه عنها فإنه يقتصر على الفرائض والواجبات أما من لا حظ له من العبادة إلا ما فرض الله عليه ثم فتر عنها فإنه وقع في المحظور، فمن حفظ نوافله حفظ الله له فرائضه ومن قصر في نوافله قصر في فرائضه.

٣ ـ التنويع بين العبادات.

تنويع العبادة والعمل، فالنفس ملولة، ولذلك فإن التنويع بين العبادات، يعطي النفس دفعة وحيوية ونشاطا، فكم مارس الإنسان من عبادة حتى إذا أدركه الفتور فيها وثقلت عليه انتقل إلى غيرها، فيتجدد نشاطه، وتقوى عزيمته، ويجد فيه لذة ومتعة، ولو استمر فيها خارت قواه ووهنت عزيمته، وربما أدى به إلى كرهها والنفور منها، ولكن يجب التنبه إلى أن التنويع في العمل لا يعني الفوضى وعدم الاستقرار، بل لابد أن يكون له قدراً ثابت يسير عليه كالسنن المؤكدة وقدراً آخر ينوع فيه كالمندوبات والمستحبات، وهذا يختلف بين شخص وآخر يقول شيخ الاسلام في مجموع الفتاوى: «وأما الاقتصار على الذكر المجرد الشرعي مثل قول: لا إله إلا الله ـ فهذا قد ينتفع به الإنسان أحيانا لكن ليس هذا الذكر وحده هو الطريق إلى الله ـ تعالى ـ دون ما عداه بل أفضل العبادات البدنية الصلاة ثم القراءة ثم الذكر ثم الدعاء والمفضول في وقته الذي شرع فيه أفضل من

---

(١) فتح الباري، ١١/٣٤٣.

الفاضل كالتسبيح في الركوع والسجود فإنه أفضل من القراءة وكذلك الدعاء في آخر الصلاة أفضل من القراءة ثم قد يفتح على الإنسان في العمل المفضول ما لا يفتح عليه في العمل الفاضل. وقد ييسر عليه هذا دون هذا فيكون هذا أفضل في حقه لعجزه عن الأفضل»(١).

فعلى العبد المسلم أن ينوع بين العبادات، حتى لا يمل منها ومن ثم يحقق المقصود من ذلك وهو المداومة عليها وعند الانقطاع عنه، بل قليل دائم خير من كثير منقطع.

٤ ـ تدبر سُنن الله في الكون.

فقد حث الله ـ عز وجل ـ على تدبر سُنن الله في الكون والتأمل فيها، مما يحي في النفوس الإيمان، فقال تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١]. أي: أن ذلك النظر والتفكر في هذا الكون وما فيه من عجائب تدل على قدرة الله وحكمته وتسيره لجميع الأمور بمشيئته، يزيد من إيمان العبد، ومن ثم يقودهم هذا الإيمان إلى ذكر الله والتضرع إليه في شتى أنواع العبادات.

٥ ـ الصبر والمصابرة.

والمراد بذلك الصبر على عبادة الله وأدائها في أوقاتها والمحافظة عليها وعدم الانقطاع عنها، ووذلك لثقل أداء العبادات ولا سيما

(١) مجموع الفتاوى، ١٠/٤٠١.

عند تسلط الشيطان ونزغاته وغلبة النفس وحب الركون إلى الراحة والخمول والكسل، فمن العبادات ما يثقل على النفس أداؤها بسبب الكسل كالصلاة، ومنها ما يثقل على النفس أداؤها بسبب البخل كالزكاة، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد، فحاجة المسلم للصبر والمصابرة حاجة ماسه، قال تعالى ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طـه ١٣٢] أي «داوم على أدائها، والأمر بها»[١] واثبت عليها وتحمل المشاق من أجلها، فإن صبرت عليها، فأبشر بالفلاح بالدنيا والرزق الحلال والنجاة يوم القيامة من النار والفوز بالجنة.

قال أبو الحسن الماوردي ـ رحمه الله ـ: «الصبر على امتثال ما أمر الله ـ تعالى ـ به، والانتهاء عم ا نهى الله عنه؛ لأن به تخلص الطاعة وبها يصح الدين وتؤدى الفروض ويستحق الثواب. . . وليس لمن قل صبره على طاعة حظ من بر ولا نصيب من صلاح، ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها ثوابا. ويدفع عنها عقابا، كان من سوء الاختيار بعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال»[٢].

وقال تعالى ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠] وقال تعالى ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

---

(١) أوضح التفاسير، ١/ ٣٨٧.

(٢) أدب الدنيا والدين، ٢٨٧ .

[آل عمران: ١٨٦] أي «تصبروا على المكاره وتتقوا في الأقوال والأعمال ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٨٦﴾ أي الصبر والتقوى من الأمور التي ينبغي أن تعزموا عليها»(١) وقال ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾ [آل عمرن: ١٤٦] وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله»(٢).

وجملة هذه النصوص السابقة تدل على عظم الصبر والمصابرة ومجاهدة النفس في بذل غاية الوسع في العبادة والاجتهاد فيها.

و«يحتاج العبد إلى الصبر على الطاعة في ثلاث حالات:

الأولى: قبل الشروع في الطاعة، وذلك بتصحيح النية والإخلاص، والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات، وعقد العزم على الوفاء بهذه الطاعة.

الثانية: الصبر حال القيام بالطاعة، وذلك بملازمة الصبر عن التقصير فيها، وملازمة استصحاب النية، وحضور القلب بين يدي المعبود.

الثالثة: الصبر بعد الفراغ من الطاعة، وذلك بالصبر عن الإتيان بما يبطلها، والصبر عن النظر إليها بعين العجب والتعظيم، والصبر عن نقلها من ديوان السر إلى ديوان العلانية»(٣).

---

(١) صفوة التفاسير، ١/ ٢٢٨.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، ١/ ١٥٠، رقم الحديث (٤٧) قال الألباني صحيح موقوف.

(٣) دراسات في خلق الصبر في ضوء الكتاب والسنة للدكتور مفرح القوسي، نقلا عن: مجلة البحوث الإسلامية، الصادرة عن الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء ٧٥/ ١٤١.

٦ ـ الدعاء.

والدعاء من أنفع الأدوية وهو السلاح الأمضى، والعامل الأقوى وله أثره في زيادة الإيمان، وحسبك أن النبي ﷺ كان يكثر منه ويقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»(١) و عن ابن عباس، قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول: «**رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، وأهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شاكرا، لك ذاكرا، لك رهابا، لك مطواعا، لك مخبتا، إليك أواها منيبا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، وثبت حجتي، وسدد لساني، وأهد قلبي، واسلل سخيمة (٢) صدري**»(٣).

وقال الله ـ عز وجل ـ في الحديث القدسي: «**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم**»(٤) فعلى المسلم الإلحاح على الله في طلب الهداية والثبات عليها كما كان يفعل النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق والمسدد الملهم، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين ومع ذلك كان يلح على الله بالدعاء بأن يثبت قلبه، ويهدي جوارحه.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) السخيمة: الغش والغل والحقد. انظر لسان العرب، ١٢/ ٢٨٢، مادة «سخم».

(٣) سنن أبي داود ٢/ ٨٣، رقم الحديث (١٥١٠)، وصححه الحاكم في المستدرك، ١/ ٧٠١.

(٤) أخرجه مسلم، باب «تحريم الظلم» ٤/ ١٩٩٤، رقم الحديث (٢٥٧٧).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات على ما منَّ عليَّ ـ سبحانه ـ من نعم كثيرة، ومنها إنجاز هذا الكتاب، وفي الختام أوجز النتائج العلمية الَّتي توصلت إليها فيه، وذلك على النحو التالي:

١ ـ الفتــور داء فتاك، يســارع في اطفاء نــور الإيمان من قلب العبد.

٢ ـ للأسباب القلبية أثر جلي في فتور العبد وإنقطاعه.

٣ ـإن الأســباب الخارجية تســبب ضغطاً على العبد فتهلكة إن أستسلم لها.

٤ ـ للمنهج السلوكي الأثر الواضح في تشتت ذهن العبد وغياب الهدف لديه.

٥ ـإن التكاســل في العبادات وقســوة القلب وإعراضه عن الله دليل لفتور العبد وضعف علاقته بالله.

٦ ـ النفور من الصالحين ومجالسهم علامة واضحة لنفوره لما هم عليه من تقوى وصلاح وإيمان.

٧ ـلا يتمكــن الفتــور من إيمان العبد حتى يأخذ العبد بأســبابه الداعية إليه.

٨ ـ أنـــه ما من داء إلا وله دواء، علمـــه من علمه وجهله ومن جهله.

٩ ـ الأعتراف بالداء والحرص على أخذ الدواء، دليل على صدق العبد مع الله والإقبال عليه.

١٠ ـ معالجة الأســباب القلبية تكــون بالإقبال على الله وتذكر الدار الآخرة وما أعده الله لعبادة الصالحين.

١١ ـ معالجة الأسباب الخارجية تكون بمعرفة طبيعة الطريق والصبر والمصابرة وصحبة أهل الهمم العالية.

١٢ ـ معالجة الأسباب الســلوكية تكون معرفة المنهج النبوي في مختلف شؤون الحياة.

١٣ ـ للدعـــاء والصبر والمصابرة و تعاهد الإيمان من فترة لأخرى وقاية بإذن الله من الفتور في العبادة.

التوصيات:

١ ـ على العلماء الحرص على الجرعات الإيمانية وذلك من خلال الدروس العلمية وعدم الأكتفاء بالدروس العلمية الصرفة.

٢ ـ علــى القائمين على المراكز التربوية كالمســاجد والحلقات القرآنيــة والمدارس التربوية الألتفات حول هذا الجانب بتقوية الإيمان وزيادة وعدم الأقتصار على التعليم و التحفيظ فقط.

٣ ـ إقامـــة المؤتمرات والندوات في تعزيز الجانب الإيماني التي من شانها رفع الهمم والتطلع لمعالي الأمور.

فهرس الموضوعات